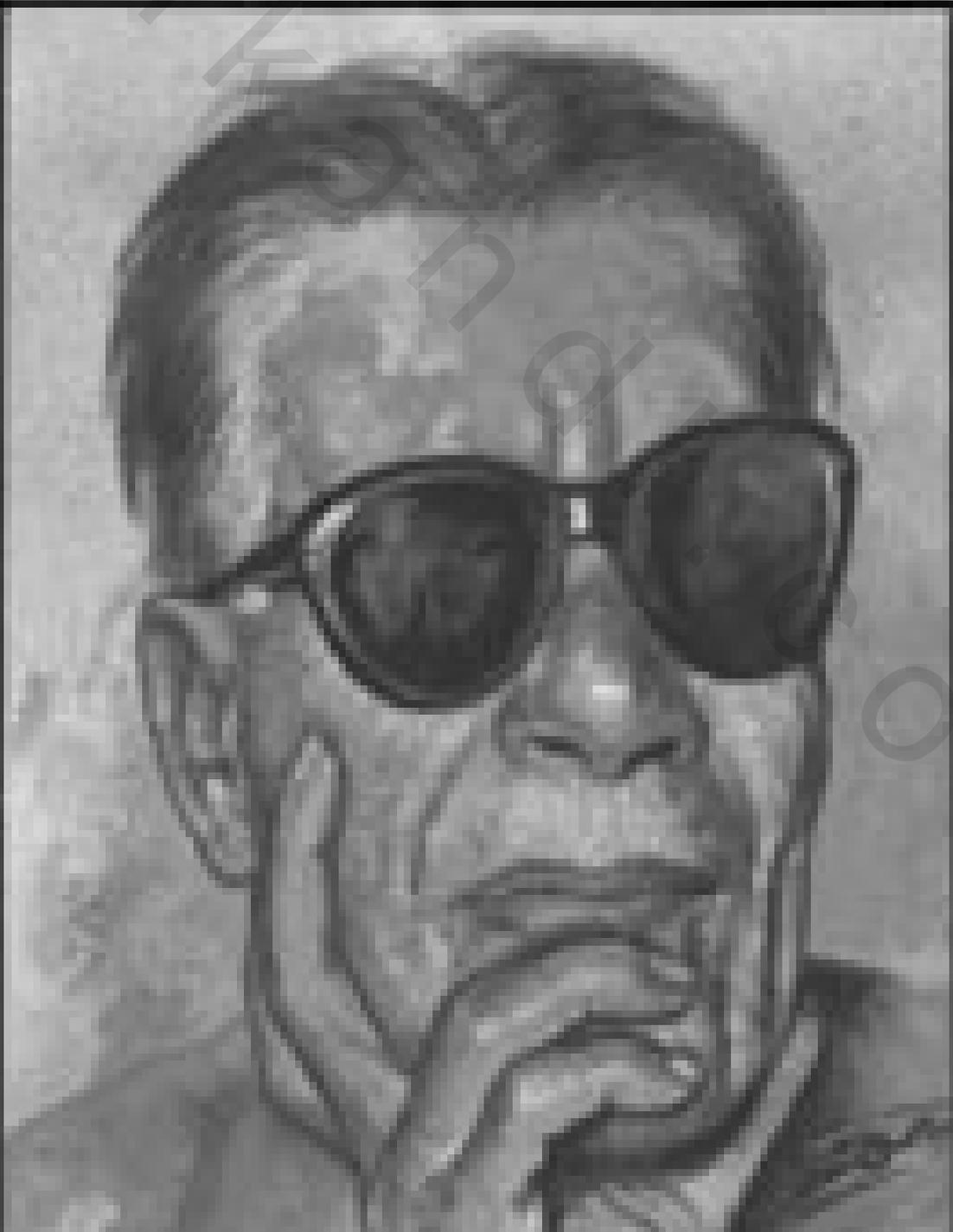


وہ سب

# دعوت الکریم



طه حسين

# دعاء الكروان

الطبعة السابعة والعشرون



بطاقة الفهرسة إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشؤون الفنية
حسين. طه. ١٨٨٩ - ١٩٧٣ دعاء الكروان/ طه حسين. ط ٢٧ - القاهرة: دار المعارف. ٢٠٠٧ ١٦٠ ص. ٢٠ سم. تدمك ٨ - ٧٠٩٣ - ٠٢ - ٩٧٧. ١- القصص العربية ٢- العنوان
ديوى ٨١٣

١ / ٢٠٠٧ / ١٢

رقم الإيداع ٥٥٩٣ / ٢٠٠٧

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: [maaref@idec.net.eg](mailto:maaref@idec.net.eg)

إلى صديقي الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد

سيدي الأستاذ:

أنت أقيمت للكروان ديوانًا فخماً في الشعر العربي الحديث، فهل تأذن في أن أتخذ له  
عشاً متواضعاً في النثر العربي الحديث، وأن أهدى إليك هذه القصة تحية خالصة من صديق  
مخلص.

طه حسين

أتيح لهذه القصة أن تبلغ من نفس شاعرنا العظيم خليل مطران موضع الرضا، فأهدى إلى هذه القصيدة الرائعة فضلا منه أتقبله فخوراً شكوراً. وأكره أن أؤثر به نفسى من دون الذين يحبون الشعر الرفيع، بل أكره أن يحمنى التواضع الكاذب على إخفاء هذه المكreme التى إن صورت شيئاً فإنما تصور نفساً كريمة وقلباً عطوفاً:

دُعَاءَ هَذَا الْكَرْوَانَ الَّذِي	خَلَّدَتْهُ فِي مَسْمَعِ الدَّهْرِ
لَهُ صَدَى فِي الْقَلْبِ وَالْفِكْرِ مِنْ	أَشْهَى مَتَاعِ الْقَلْبِ وَالْفِكْرِ
لَكِنَّهُ مُشَجِّجٌ بِتَرْجِيْعِهِ	لَمَا جَرَى فِي ذَلِكَ الْقَفْرِ
إِذْ تَسْكُنُ الْبَيْدَاءَ وَهَنًا فَمَا	يَنْبِضُ إِلَّا مُهْجُ السَّفْرِ
وَاللَّيْلُ فِي التِّيهِ السَّحِيقِ الْمَدَى	يُطْبِقُ جَفْنِيْهِ عَلَى وَرْرِ
وَالطَّائِرِ الْمُرْتَاعِ فِي جَوْهِ	يَنْذِرُ بِالْمَأْسَاءِ فِي دُعْرِ
يُرْنُ إِرْنَانَ سَهَامٍ رَمَتْ	حَيْثُ رَمَتْ بِالشَّعْلِ الحُمْرِ
أَسَالَ أَدْمَعِي خَطْبُ مَطْلُولَةٍ	مَقْتُولَةٍ فِي زَهْرَةِ العَمْرِ
جَنَى عَلَيْهَا وَاهِمٌ أَنَّهُ	يَثَارُ لِلْعَرَضِ وَلِلطَّهْرِ
وَخَامَرْتَنِي حَسْرَةً خَامَرْتِ	شُهُودَ ذَلِكَ الْمَصْرَعِ النُّكْرِ
أَلَيْسَ لِلأَرْوَاحِ فِي بَنَاهَا	أَوَاصِرٌ مِنْ حَيْثُ لَا تَدْرِ

جوهرها فردًا وإحساسها

مُشتركٌ في النفع والضَّرِّ

حادثة في ريف مصرٍ جرت

ومثلها في الريف كم يجري

قصت علينا قصصًا شائقا

في كَلِمٍ أنقى من القطرِ

مسرودةً سردًا على صفوه

أفعل في النفس من الخمرِ

يا لغة العرب التي كاشفت

طه بما صانت من السرِّ

من أي روضٍ يجتني مثل ما

جناه من أزهارك النُّضْرِ

من أي بحرٍ والمنى ذُرَّةُ

يُصاد ما صاد من الدر

من أي تبرٍ في غوالي الجلى

يُصاغ ما صاغ من التبرِ

آيات طه نزلت بالهدى

فيم استعارت فتنة السحرِ

أحدث ما جاءت به طرفة

بديعةً في أدب العصرِ

جلت خيال الشعر في صورة

أغارت الشعر من النثرِ

لم يكن يقدر أنى سألقاه قائمة باسمه حين أقبل إلى فى ظلمة الليل يسعى كأنه الحية أو كأنه اللص، ولكنه لم يكذب يبلغ باب الغرفة ويتبين شخصى ماثلاً فى وسطها وعلى وجهه ابتسامة شاحبة كأنها ابتسامة الأشباح حتى أخذه شيء من الذعر، فتراجع خطوات ثم قال فى صوت أبيض جعل يأخذ صوته الطبيعى قليلاً قليلاً: ماذا! ألا تزالين ساهرة إلى الآن؟ أتعلمين متى أنت من الليل؟ قلت: لقد جاوزت ثلثه وما كان ينبغى لى أن أنام قبل أن ينام سيدى، فما يدرينى لعله يحتاج إلى شيء. قال وقد عاد إلى ثباته وهدهده نفسه واسترد صوته شيئاً من قحته المألوفة ودعايته البغيضة: ما رأيت قبلك خادماً مثلك تحسن العناية بسيدها وتسهو منتظرة مقدمه إلى آخر الليل. لقد كنت أحسبك نائمة كما تعودت أرى من سبقك فى خدمتى، وكنت أقدر أنى سأجد فى إيقاظك بعض الجهد؛ فلست أدرى ما بال نوم الخدم يثقل حتى كأنهم أموات. قلت: قد أرحت سيدى من هذه الجهد، وانتظر تقدمه كما تعودت منذ اصطنعت خدمة المترفين الذين لا يحبون إنفاق الليل فى دورهم، فليأمر سيدى بما يريد، قال وهو يضحك ضحكاً سمجاً وقد مد إلى يداً وددت لو استطعت قطعها، ولكنى تراجعت حتى لا تبلغنى: فإن سيدك يأمر أن تتبعيه.

ثم انحدر إلى غرفته ومضيت فى إثره.

\*\*\*

لبيك لبيك أيها الطائر العزيز! ما زلت ساهرة أرقب مقدمك وانتظر نداءك؛ وما كان ينبغى لى أن أنام حتى أحس قريك، وأسمع صوتك، وأستجيب لدعائك. ألم أعود هذا منذ أكثر من عشرين عاماً!

لبيك لبيك أيها الطائر العزيز! ما أحب صوتك إلى نفسى إذا جنم الليل، وهذا الكون، ونامت الحياة، وانطلقت الأرواح فى هذا السكون المظلم، آمنة لا تخاف، صامتة لا تسمع!

إن صوتك إذن لأشبه الأشياء بأن يكون صوتاً لروح من هذه الأرواح ليذكرنى روح هذه الأخت التى شهدت مصرعها معى فى تلك الليلة المهيبة الرهيبة، وفى ذلك الفضاء العريض الذى لم يكن من سبيل إلى أن يسمع الصوت فيه مهما يرتفع، ولا أن يجيب المغيث فيه لمن استغاث.

لبيك لبيك أيها الطائر العزيز! ادن منى إن كان من أخلاقك الدنو، وأنس إلى أن كان من خصالك الأناس إلى الناس، واسمع منى وتحدث إلى، وهلم نذكر المأساة التى شهدناها معاً، وعجزنا عن أن ندفعها أو نصرف شرها عن تلك النفس الزكية التى أزهرت، وعن هذا الدم البرىء الذى سفك.

فلم نزد حينئذ على أن بعثنا صيحات ترددت في ذلك الفضاء العريض لكنها لم تبلغ أذناً ولم تصل إلى قلب، وإنما صعدت إلى السماء على حين هوى ذلك الجسم الجميل الممزق في تلك الحفرة التي أعدت له إعداداً، ثم هيل التراب وسويت الأرض، وأنت تدعو ولا من يستجيب، وأنا أستغيث ولا من يغيث، وامرأة متقدمة في السن قد انتحت ناحية وجلست تذرف دموعها في صمت عميق، ورجل متقدم في السن قد قام غير بعيد يسوى الأرض، ويصب عليها الماء، ويردها كما كانت، ثم ينتحى قليلاً ويزيل عن جسمه وثيابه آثار الدم والتراب، ثم يرتفع صوته أمراً أن هلم فقد آن لنا أن نرتحل.

منذ ذلك الوقت تم العهد بينك وبينى أيها الطائر العزيز على أن نذكر هذه المأساة كلما انتصف الليل حتى نثار لهذه الفتاة التي غودرت في هذا الفضاء، ثم نذكر هذه المأساة كلما انتصف الليل بعد أن نظفر بالثأر، ليكون في ذكرنا إياها وفاءً لهذه النفس التي أزهقت، ولهذا الدم الذى سفك، ورضاً عن الانتقام وقد ألم بالآثم المجرى الأمر إلى نصابه، وأراح هذه النفس التى مازالت تطلب الرى حتى تظفر بالثأر من الذين اعتدوا عليها.

لبيك لبيك أيها الطائر العزيز! إنا لنلتقى كلما انتصف الليل منذ أعوام وأعوام فندير بيننا هذا الحديث، أفقدنى أقص أطرافاً منه على الناس لعلهم أن يجدوا فيه عظة تعصم النفوس الزكية من أن تزهق، والدماء البريئة من أن تراق؟!!

لقد بعد صوت الكروان قليلا قليلا حتى انقطع ولم يبلغنى منه شيء، وعاد الليل إلى سكونه الهادئ الثقيل؛ واطمأن من حولي كل شيء، فما أسمع إلا هذه الدقات المنتظمة تصدر عن الساعة غير بعيد، وهذه الدقات المضطربة المختلفة تصدر عن هذا القلب الحزين... وأنا أخذ نفسي بالهدوء لألائم بينها وبين ما حولها فلا أوفق لبعض ذلك إلا في مشقة وعناء، وأنا أنظر إلى هذه الأشياء حولي في الغرفة فأرى ثراء ويسراً، وأرى ترفاً وكلفاً بالجمال والفن، وأنا أمد عيني إلى المرآة أمامي وأثبتها في أديمها الصافي الصقيل حيناً فتعود إلى بصورة إلا تكن رائعة بارعة، فإنها لا تخلو من رواء ونضرة وحسن تنسيق، وما لى أسأل عن صورة هذه المرآة الجامدة الهامدة التي لا تحس شيئاً ولا تشعر بشيء ولا تعرب عن شيء وإنى لأرى صورتى مرات ومرات في غير مرآة من هذه المرايا الحساسة الشاعرة البليغة التي تحسن الإفصاح عما في النفوس وهي العيون!

لقد رأيت صورتى اليوم في غير عين من هذه العيون التي كانت ترمقني مسرعة، ثم تعود إلى فتطيل النظر إلى قليلا، ثم تعود إلى مرة أخرى فتثبت في وجهي لا تكاد تتصرف عنه. وكنت كلما رأيت صورتى في هذه العيون يحيط بها الإعجاب والرغبة والشهوات الآثمة لا أنكر ما أرى ولا أكره ما أجد من الشعور، ولا أرد نفسي عن هذا الغرور الذي يثيره في المرآة إعجاب الناس بها وتهالكهم عليها.

ثم أنا أنهض من مجلسي، وأمشي في غرفتي لحظة غير قصيرة، أذهب فيها وأجى، وأقف عند ما يملأ هذه الغرفة من أدوات الترف والنعمة، فأطيل النظر إليه لا معجبة به ولا مكبرة له، وإنما أسأل نفسي: أنا صاحبة هذا كله؟ أنا المالكة لهذا كله؟ أنا صاحبة هذه الصورة التي تردّها إلى المرآة التي كانت ترمقها العيون معجبة حين كنت أتناول الشاي في بعض مشاريعه عصر اليوم؟!

ثم أنا أفكر غير طويل فإذا أنا أستطيع، وقد تقدم الليل حتى تكاد يبلغ ثلثيه، أن أمد يدي إلى زر كهربائي قريب، فلا أكاد أمسه حتى يطرُق الباب، ولا أكاد أرفع صوتي بالإذن حتى تدخل على خادم وضيئة، حسنة الشكل، جميلة الزى، ساهرة مهما يتقدم الليل لأنى ما زلت ساهرة ولأنها لا تستطيع أن تأوى إلى مضجعتها حتى آذن لها بالنوم.

ثم أنا أمضى إلى هذه النافذة، فلا أكاد أفتحها حتى تمتلئ نفسي روعةً وجلالاً لهذه الأشجار النائمة، وهذه الأزهار المتأرجحة، وهذه الأطيوار التي تحلم في ثنايا الغصون، وكل هذا

لى ملك خالص لا يشاركنى فيه أحد، ولا يزاخمنى عليه أحد، أستطيع أن أعبت به إن شئت، ومتى شئت، وكيف شئت، لا يسألنى أحد عما أفعل!

فإذا اجتمعت فى نفسى صور هذا النعيم كله أحسست راحة وأمنًا وثقة، ثم لا ألبث أن أحس شيئًا من الكبرياء الغربية؛ لأنى لا ألبث أن أرى صورتى منذ أكثر من عشرين عامًا حين كنت صبية بانسة يائسة، قد شوه البؤس واليأس شكلها وألقيا على وجهها غشاء كئيبيًا من الدمامة والقبح. لا ألبث أن أجد هذا الحزن اللاذع العميق حين أذكر هذه المأساة التى كنت أتحدث بها منذ حين إلى هذا الطائر العزيز، والتى كان يتحدث بها منذ حين إلى هذا الطائر العزيز.

إن فى أحداث الحياة وخطوبها لعظات وعبرًا! إنى لأتحدث الآن إلى نفسى حديثًا ما كان يمكن ولا ينتظر أن تتحدث به إلى نفسها تلك الفتاة التى كان الناس يسمونها آمنة، والتى تسمى الآن سعاد لأنه اسم جميل يلائم المألوف من حسن الاختيار والتظرف فى الأسماء.

لقد كانت آمنة تلك فتاة بدوية. انحدرت بها وبأختها امرأة من أهل البادية أو من أهل هذا الريف المصرى الذى يشبه البادية، لأنه منبث فى أطراف الأرض الخصبة مما يلى الصحراء الغربية أو مما يلى هذه الهضبات التى يسميها أهل مصر الوسطى بالجبل الغربى.

كانت زهرة أم آمنة وأختها هنادى امرأة بدوية ريفية، تقيم فى قرية من هذه القرى المعلقة بهذه الهضاب والتى لا يستقر أهلها فيها إلا ريثما يزيلهم عنها فوج من أفواج الأعراب الذين يقبلون من الصحراء ليتعلموا الاستقرار فى الأرض والحياة فى أطراف الريف، ثم يدفعهم فوج آخر فإذا هم يمضون أمامهم مضياً بطيئاً، ينتقلون فى أناة ومهل من مكان إلى مكان، وهم يتقدمون نحو الأرض المتحضرة دائماً حتى يبلغوا حدود البادية أو حدود هذا الريف المتبدى، وإذا هم على شاطئ القناة التى يسمونها البحر ويزعمون أن يوسف هو الذى احتقرها فى الزمن القديم، فإذا أتيت لهم أن يعبروا البحر، فقليل منهم يحتفظ ببدائوته، وأكثرهم يفنى فى طبقات الزراع ويضيع فى عداد الفلاحين.

كانت زهرة أم هاتين الفتاتين تعيش مع زوجها الأعرابى وابنتيها فى قرية من هذه القرى، قد اتخذت اسمها فى أكبر الظن من بن من بطون الأعراب أو قبيلة من قبائلهم، فقد كانت تسمى "بنى وركان" وكان أهل القرية ومن حلوها يميلون الألف قليلاً ويذهبون بها نحو الياء، فما أسرع ما أصبح سبة وعارًا يعاب به أهل القرية، وكيف لا وقد أصبح اسمها "بين الوركين" وما أسرع ما أصبح أهل القرية يستحيون من اسم قريتهم ويكرهون الانتساب إليها، ولا سيما حين كانت تدفعهم حاجة البيع والشراء إلى أن يهبطوا المدن، فقد كان اسم قريتهم لا يذكر إلا أضحك الناس وأجرى

على ألسنتهم مزاحًا كثيرًا ثقيلًا، مُحْفَظًا لنفس البدوى الذى لم يتعود دعابة القرويين وأهل الحضر.

كانت زهرة تعيش مع زوجها وابنتيها عيشة متواضعة هادئة، فيها رخاء معتدل، وفيها عزة بهذه الأسرة الضخمة ذات العدد الكثير التى كانت أمانًا تنتسب إليها، ولكن أبانا لم يكن صاحب حشمة ووقار وسيرة حسنة إنما كان زير نساء يجب الدعابة والمجون، ولا يتحرج مما يتحرج منه الرجل المستقيم. وكانت له فى القرية وفى القرى المجاورة خطوب كانت تخيف منه وتخيف عليه.

وكانت أمانًا أشقى الناس بهذه الخطوب، تتأذى بها فى ذات نفسها - فكم حرقتها الغيرة حين كان زوجها يغيب عنها اليوم الكامل أو الليلة الكاملة - وتشفق منها على زوجها هذا الماجن؛ فقد كانت تحبه على مجونه وفجوره، وكانت تعلم أن يهيبئ لنفسه عداوات خطيرة فى كل مكان بإلحاحه فى المجون والفجور، وتخاف منها على حياة ابنتيها ومستقبلهما وآمالهما فى العيش الهنىء.

وإنها لفى ما هى فيه من غيرة وإشفاق وفزع ذات ليلة، إذ جاءها النبا بأن زوجها قد صرع. ثم يستبين الأمر قليلا قليلا، فإذا الرجل قد ذهب ضحية لشهوة من شهواته الآثمة، فليس له ثأر يطالب به، وليس من سبيل إلى استعداد السلطان على قاتليه، وإنما هو العار كل العار قد ألم بهذه المرأة البائسة وابنتيها التعيستين، وإذا الأسرة كلها تضيق بهؤلاء النساء، وتكره مكانهن منها، وتتفieh عن الأرض، وتزودهن بقليل من المال وكثير من الرحمة، وتكرههن على عبور البحر والاندفاع فى أرض الريف يلتمسن حياتهن فيها بأئسات شقيات، ليس لهن سند يعتمدون عليه، ولا ركن يأوين إليه؛ وإنما هى امرأة وحيدة لها حظ من جمال يطمع فيها الناس ويغرى بها أصحاب المجون، وصبيتان بأئستان لا تكادان تحسان شيئا.

الخطوب تنتقل بهن من قرية إلى قرية، ومن ضيعة إلى ضيعة، يلقيهن بعض اللين هنا، ويلقيهن بعض الشدة هناك، ولا تستقر بهن الأرض فى أى حال، حتى ينتهين إلى هذه المدينة الواسعة ذات الأطراف البعيدة والسكان الكثيرين، والتى تشقها الطريق الحديدية نصفين، ويمضى فيها هذا الشئ المروع المخيف الغريب الذى يبعث فى الجو شررًا ونارًا؛ وصوتًا ضخماً، وصفيرًا عاليًا نحيفًا، والذى يسمونه القطار، الذى يركبه الناس يستعينون به على أسفارهم، كما يستعين أهل البادية والريف بالإبل حينًا، وبالحمير حينًا آخر، وبالأقدام فى أكثر الأحيان.

هنالك فى طرف من أطراف هذه المدينة، استقرت هذه المرأة مع الصبيتين. لجأت إلى شيخ البلدة أو إلى شيخ العزبة فأواهما يومًا، ثم ابتغى لها ولابنتها أجرها عشرة قروش لكما بدا

الهلال. ثم قال لها شيخ العزبة: ما أكثر العمل هنا! فالتمسى حياتك وحياة ابنتيك فى بيوت هؤلاء المترفين الذين لا يعملون فى الزرع والحراث، وإنما يعملون فى خدمة الحكومة، منهم من يخدم فى معامل السكر، ومنهم من يخدم فى المركز، ومنهم من يخدم فى المحكمة الأهلية أو الشرعية، ومنهم مهندس الرى، ومنهم مهندس الطرق؛ ثم عند هؤلاء التجار الذين لا يتاجرون فى ما تخرج الأرض من الحب؛ فهؤلاء فلاحون أو كالفلاحين، وإنما يتاجرون فى هذه الأمتعة والعروض التى لا تأتى من الريف ولا تصنع فى المدينة، وإنما تأتى من مصر، هناك حيث الناس لا ينطقون كما نطق ولا يعيشون كما نعيش.

عند هؤلاء التجار الذين يبيعون الأقمشة والأحذية والأثاث، يجلبونها من مصر ويبيعونها فى المدينة وفى القرى، ويرحون منها الأموال الضخمة ويعيشون فى بيوتهم عيشة السادة والأمراء: لا يأكلون على الأرض وإنما يأكلون على الموائد، لا يأكلون الذرة، وإنما يأكلون خبز الحنطة، لا يأكلون فى أطباق النحاس، وإنما يأكلون فى أطباق من الخزف، لا يسمحون لنسائهم أن يخرجن مبتذلات، وإنما يخرجن ملففات فى هذه الثياب يتخذنها من الحرير. وعلى وجوههن هذه البراقع الصفاق، وعلى أنوفهم هذه القصبات من الذهب الخالص أو من الفضة المذهبة.

عند هؤلاء الموظفين، وعند هؤلاء التجار تشتد الحاجة إلى الخدم، والحياء فى بيوتهم لينة ناعمة، فالتمسى لنفسك ولابنتيك بعض العمل فى بعض هذه البيوت.

قال ذلك شيخ العزبة، ثم سمي لها أشخاصًا ووصف لها بيوتًا ووعداها بالمعونة، وانقضت أيام قليلة ولكنها ثقيلة، كانت أمناً تدور فيها بنفسها وبنا على البيوت تعرض نفسها، وتعرضنا للخدمة، كما تُعرض الإماء على السادة.

ولكن هذه الأيام لم تتصل، وما أسرع ما استقرت كل واحدة منا فى بيت تعمل فيه بالنهار، وتنام فيه الليل، وتلتقى آخر الأسبوع، فنقضى ليلة سعيدة رضية فى حجرتنا تلك القذرة الحقيرة، قد حملت كل منا ما أتيح لها حمله من الطعام، فنجتمع إلى طعامنا، ونتحدث عن أهلنا وقريتنا، ثم عن سادتنا وسيداتنا، حتى إذا تقدم الليل أغرقنا فى نوم هادئ لذيذ، فإذا كان الصباح تفرقنا إلى حيث نعمل فى بيوت التجار والموظفين

وكنت أحسن الثلاث حظًا وأيمنهن طالعًا؛ فقد قدر لى أن أخدم فى بيت مأمور المركز، وكانت خدمتى غريبة أول الأمر ثقيلة على نفسى، ولكنى لم ألبث أن أحببتها ووجدت فيها لذة ومتاعًا. كلفت أن أصحب صبية من بنات المأمور كانت تقاربنى فى السن، ولعلها كانت أكبر منى قليلا.

كنت أرافقها فى اللعب على ألا أعب معها، وأرافقها إلى الكتاب على ألا أتعلم معها، وأرفقها حين يأتى المعلم ليلقى عليها الدرس قبل الغروب على ألا أتلقى الدرس معها.

كنت لها خادماً ألحظها من بعيد، وأجيبها إلى ما تريد، ولا أشاركها فى شىء مما تعمل، ولكن "خديجة" كانت حلوة النفس، رضية الخلق، مشرقة الوجه دائماً، مبتسمة الثغر دائماً، وديعة النفس، رقيقة الحاشية؛ فلم يطل ما كان بينها وبينى من البعد، وإنما أشركتني فى لعبها، واختصتني بأحاديثها وآثرتني بأسرارها، ولم تبخل على حتى ببعض ما كانت تمنحها أمها من الحلوى، أو من النقد لتشتري به الحلوى.

وما هى إلا أن تزول بيننا الكلفة ونصبح رفيقتين صديقتين، وسيدة البيت تتكر ذلك أول الأمر، ولكنها تدعن له بعد حين؛ وإذا أنا أختلف مع الصبية إلى الكتاب فأتعلم كما تعلم، وأتلقى مع الصبية درس المعلم فأستفيد كما تستفيد، وإذا ثياب الصبية تخلع على فيقرب ما بينها وبينى من اختلاف الزى، وأختلس نظرات إليها، ثم أختلس نظرات إلى المرأة، فلا أكاد أحس بينها وبين فرقا ولا اختلافاً، لولا أنها كانت تتكلم لغة حلوة عذبة رقيقة هى لغة مصر، وكنت أتكلم لغة فجة خشنة غليظة هى لغة أهل الريف من "بنى وركان" وكانت أفرد فى نفسى لغة خديجة فأحسنها وأجيدها، ولكنى حاولت غير مرة أن أجهر بهذا التقليد، فردعت عن ذلك ردعاً عنيفاً، ثم حاولت غير مرة أن أجهر بهذا التقليد حين كنت ألقى أمى وأختى فكانتا تضحكان منى ضحكاً يحزننى ويردنى إلى لغة الريف.

وأنفقت مع خديجة عامًا وعامًا لم ألق فيهما بأسًا ولم أشك فيهما عناء، وإنما عرفت فيهما الترف والنعيم، وتعلمت فيهما غير قليل مما يعرفه الأغنياء، وبعد فيهما الأمد بعداً شديداً بينى وبين أمى التى كانت تعمل فى بيت موظف من موظفى الدائرة السنية، معتدل الحال متوسط العيش، وكلنه أميل إلى حياة الريف، وأحرص على تقاليد الفلاحين، وبعد فيهما الأمد بينى وبين أختى التى كانت تعمل فى بيت مهندس الرى، ذلك الشاب الرشيق الأنيق ذو الوجه

الوسيم، ذلك الشاب الذى كان يعيش وحيداً فى دار واسعة، تحيط بها حديقة جميلة نضرة، ولا يعيش معه فيها إلا خادم ريفي، يحرس الدار ويعنى بالحديقة، وإلا أختى تنظف الدار وتعنى بمتاع الشاب وكان الطعام يأتيه غزيراً موفوراً من مطعم المدينة، فيصيب منه القليل، ويترك أكثره لخدميه.

وكنت أرى أختى تشب مسرعة، ويستدير جسمها استدارة حسنة، وتظهر عليها آثار النعمة وآيات من جمال، ولكنها ظلت كما أقبلت من ريفها المبتدى، ريفية بدوية، لا تقرأ ولا تكتب كما كنت أقرأ وأكتب. ولا تحسن من أمور الترف شيئاً كما كنت أحسن منها أشياء.

وفى ذات يوم التقينا آخر النهار فى حجرتنا تلك الحقيرة القذرة، وكنت قد أخذت أكره هذا اللقاء، وأضيق بهذه الحجرة، وأود لو أعفيت من هذا الاختلاف إليها كل أسبوع، ولو استطعت أن ألقى أمى وأختى من حين إلى حين حيث كانتا تعملان. ولكن أمنا كانت صارمة حازمة ملحة فى الصرامة والحزم، لا تغير من عاداتها شيئاً، فكنا نلتقى آخر الأسبوع دائماً، وكانتا تضحكان وتتعمان بهذا اللقاء وكنت أتكلف معهما الضحك وأتكلف معها النعيم.

فلما كان ذلك اليوم والتقىنا مع المساء، لم أر بشراً ولا ابتساماً، ولم أر بهجة ولا اغتباطاً، وإنما أحسست صمتاً عميقاً مريباً، ورأيت وجهين كئيبين مظلمين، وخيل إلى أنى أرى دموعاً تضطرب فى عيني أمنا ولا تستطيع أن تتحدر. وهممت أن أسأل عما أرى، فأعرضت أختى عنى إعراضاً وأشارت إلى أمى أن لا تسألى.

وقضينا وقتاً طويلاً ثقيلًا فى هذا الهم الممض الذى لم أكن أفهمه ولا أتبين له مصدرًا. ثم انقطع هذا الصمت فجأةً بجملة واحدة لم أسمع بعدها شيئاً، ولم أصنع بعدها شيئاً حتى كان الصباح، صدرت هذه الجملة عن أمنا فوقعت فى قلبى موقع الساعة، ولقيتها أختى بوجوم غريب، رفعت عينيها إلى السماء، ثم مضت فيما كانت فيه من صمت وحزن وإعراض.

قالت أمنا: إذا كان الغد فسنتحل عن المدينة المشنومة!

لقد هممت حين سمعت هذه الجملة أن أنكر، وأن أمتنع، وأن أناقش وأجادل، ولكن أمنا قالت هذه الجملة بصوت حزين بعيد محطم، فلم أستطيع أن أقول شيئاً ولا أن أظهر شيئاً إلا الطاعة والإذعان.

وذكرت ما ألم بها من البؤس طول حياتها مع ذلك الزوج الماجن الفاجر. ذكرت ما حرق فؤادها من الغيرة، ما آذى نفسها من الذل، وما روع قلبها من الخوف.

ثم ذكرت ذلك الخطب الذى ألم بها فهدها هدًا حين جاءها النبأ بأن زوجها قد صرع،  
وبأنه قد صرح فيما لا يشرف به صريع.

ثم ذكرت هذه الآلام التى لا حد لها، التى غمرتها كما يغمر الماء الغريق، حين أنكرتها  
الأسرة إنكارًا، وحين أخرجتها من القرية ثم نفتها مع ابنتيها من الأرض.

ذكرتُ هذا فلم أستطع أن أنكر ولا أن أجادل، ولم أزد على أن أظهرت الطاعة  
والإذعان، والله يعلم أى ليلة قضيت ساهرة حائرة ثائرة، لا أطمئن إلى شىء ولا اسكن إلى رأى.  
حتى إذا كان الصباح نهضت أمنا فأمرت أن نستعد للرحيل: قلت: أفلا نؤذن سادتنا بهذا  
الرحيل؟ قالت فى صوت هادئ حزين: إن كان يؤذيك فراقهم فأقيمى فسنرحل نحن. قلت باكياً:  
إن فراقهم ليؤذيني لكنى لن أستطيع أن أقيم، وإنما هبطت معكما هذه الأرض، وقد كنت أحب أن  
أرى خديجة قبل الرحيل.

قالت: فإنك إن رأيتها لم تعودى إلينا، أليس أبوها مأمور المركز؟ أفئن تعلقت بك وكرهت  
فراقك يخل بينك وبين الرحيل؟ قلت: إذن فلنرحل.

وما هى إلى ساعات حتى كانت أقدامنا قد تجاوزت بنا المدينة، وانتقلت بنا من قرية إلى  
قرية نحو الغرب، حتى إذا بلغ منا الإعياء أقمنا حيث كنا نستريح ومنتظر الصباح.

وينتهى إلى صوتك أيها الطائر العزيز، وأنا أسبح في نوم غير عميق، وأرى من الأحلام صوراً قريبة مألوفة تمثل لي خديجة وهى تلعب وتدعوني إلى أن أشاركها فى اللعب. وتمثل لي سيدة البيت وهى تأمر وتتهى، وتصعد وتهبط، وتذهب فى تدبير بيتها وتجىء، وتمثل المأمور وقد أقبل مع الظهر فاضطرب لمقدمة البيت، ثم عاد إلى هدوء يوشك أن يكون السكون، ثم فرغ أهل البيت كلهم لهذا الرجل يعنون به ويتوفرون على خدمته، كأنهم لم يخلقوا إلا له، ولم يوقفوا إلا عليه.

وتمثل لي أموراً كثيراً مما كنت أراه فى ذلك العهد السعيد القريب. ولكن صوت الطائر العزيز يبلغنى فيخرجنى من هذا النوم الحلو إلى يقظة مؤلمة لا أكاد أشعر بها حتى أمس غلظ المضجع وخشونة الفراش. وأين يقع هذا الوطاء الخشن من الصوف قد بسط على الأرض الغليظة بسطاً، من ذلك الفراش الوثير الموطأ الذى كان يلقى لي غير بعيد من سرير خديجة فى تلك الغرفة الجميلة المترفة من بيت المأمور!

لم أكد أحس خشونة هذا الوطاء، وغلظ هذه الأرض، حتى ذكرت أننا نام عند مضيفنا العمدة على سطح من سطوح الدار، لا يسترنا سقف وإنما تظللنا السماء، وتكاد تغمرنا ظلمة الليل لولا هذا الشعاع الرقيق الذى كان يتفرق فيها من ضوء القمر، وقد تقدم به الشهر غير قليل.

نعم! وذكرت كيف انتهينا إلى هذه القرية مجهودات مكدودات آخر النهار، نجلس إلى شجرات من التوت ساعة وبعض ساعة نستريح، ولا تكاد واحدة منها تحدث إلى صاحبها بشيء، حتى إذا طال علينا الصمت، وشقت علينا الراحة، وثقل علينا التفكير، قالت أمنا: ما أظن أننا نستطيع أن ننفق الليل جالسات إلى هذا الشجر، وما أرى أننا نستطيع أن نجد من يؤوبنا أو يضيفنا فى هذه القرية التى لا تعرف من أهلها أحداً ولا يعرفنا من أهلها أحد إلا العمدة. فيجب أن يكون بيته مفتوحاً لكل غريب طارق بليل أو بنهار، ثم نهضت متثاقلة ونهضنا معها، ومضت متباطئة ومضيفنا معها، حتى انتهت إلى دار العمدة، لم تسأل عنها ولم تستدل عليها، وإنما مضت إليها كأنما كانت تعرفها من قبل. هنالك رأينا جماعة من الناس قد جلسوا أمام الدار على مصطبة عظيمة، وتوسطهم رجل شيخ لا تكاد العين تقع عليه حتى تثق النفس بأنه عمدة القرية. فلما بلغنا مجلس القوم ولحظتنا أبصارهم، تقدم أمنا إلى الشيخ الوقور وقالت فى صوت هادئ مترن: غريبات قد طرقت القرية فى هذه الساعة المتأخرة من النهار فأونا يا عمدة حتى يسفر

الصباح، قال الرجل: على الرحب والسعة. ثم دعا فأقبل إليه غلام من داخل الدار، قال: خذ هؤلاء النسوة إلى دار الضيافة ومر بإكرام مثنواهن.

ومضى الغلام ونحن نتبعه حتى انتهى بنا إلى دار الضيافة، فإذا بناء متواضع قد انبسط أمامه فناء عظيم، فأدخلنا إلى بعض جيرانه وقيل لنا أقمن هنا حتى يأتيكن الطعام.

وها هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى اتصلنا بمن في الدار من أضياف وخدم قد اختلط بعضهم ببعض فكأنهن جميعاً أصحاب البيت، ثم اتصلت الأحاديث واختلطنا بمن وجدنا، فأمسينا وكأننا منهن.

وكان العشاء الغليظ، وكان السمر المضطرب المختلط، ثم كان التفرق إلى المضاجع، ثمنا من أثر الهواء الطلق فاتخذ مضجعه على سطح الدار أو في فنائها، ومنا من أشفق من ذلك فأوى إلى الغرفات والحجرات.

وقد رغبت "هنادي" في السطح وشاركتها في هذه الرغبة ومضينا معاً ننتظر النوم، وكنت أحدث نفسي بأن هذه الخلوة إلى أختي قد تكشف لي عن بعض ما يخفى على من أمر.

ولكني لم أكد أجلس إليها أحاول أن أصل الحديث بينها وبينى حتى لقيتني بذلك الإعراض المتلوج الذي لقيتني به أمس، ثم أشاحت بوجهها ومضت في صمتها، وأقمت أنا إلى جانبها حائرة لا أدري كيف أقول.

ثم استلقيت وأرسلت نفسي في فضاء هذا الليل العريض تلتمس ما يلهيها عن هذه الهموم الغامضة المستغلقة التي لم أكن أعرف منها إلا ثقلها. ولكن هذه النفس لم تكد تمضي في ظلمة الليل حتى أدركها موج من هذا النوم اليسير فأخذت تسبح فيه، ولبثت كذلك حتى أخرجها منه هذا الطائر العزيز.

ذكرت هذا كله حين استيقظت ومرت بي خواطره مسرعة في حين كنت أحاول أن أتبنى أين أنا وكيف انتهيت إلى حيث أنا، وفي حين كنت أفتح عيني وأديرهما من حولي كأنما أريد أن أستكمل شخصي حين أتبين حقيقة المكان الذي أنا فيه، وفي حين كنت أمد ذراعي عن يمين وشمال، وأمد ساقى كأنما أريد أن استمد لجسمي ما أفقده هذا النوم اليسير من نشاط، وكأنما كنت أمحو عنه ما تركت فيه هذه الأرض الغليظة من ألم.

ثم استكمل شعوري وأجد نفسي كما كنت قبل أن يغمرنى النوم، وأحس كأن شخصاً قائماً غير بعيد مني، فأتبين هذا الشخص فإذا هي أختي قائمة جامدة لا تكاد تأتي حركة، ولا تكاد تحس شيئاً، وكأنها لا تكاد تفكر في شيء.

إنما هو شخص مائل ذاهل قد قام فى شىء من الجمود المؤلم، ورفع رأسه إلى السماء كأنه كان ينتظر منها شيئاً، وكأنما أبطأ عليه ما كان ينتظر منها فجمد فى مكانه لا يستطيع منه انقلا.

وأنت أيها الطائر العزيز تلقى فى الليل العريض المظلم نداءك البعيد العذب، فيصل إلى نفسى فيحييها، ويوقظ فيها الذكرى ويبعث فيها الأمل ويشيع النشاط، وأختى مائلة ذاهلة كأن صوتك لا يبلغها ولا ينتهى إليها، ومع ذلك فما عهدتها صماء، ولا عهدتها تحسن الحزن أو تجيد الاكتئاب، إنما أعرفا فرحة مرحة، تحب الضحك ولا تحتاج إلى أن تدفع إليه، وإنما تحتاج إلى أن تدفع عنه، أين هى؟ ما بالها جامدة هامة لا تسمع ولا تحس؟ لعلها قد أرسلت نفسها كما أرسلت نفسى تسبح فى هذا الليل العريض فأبعدت نفسها فى السعى وتركت جسمها مائلا بلا روح؛ نهضت من مكانى فى هدوء وسعيت إليها فى أناة، حتى إذا بلغت مسست كنفها مسا رقيقاً، فإذا رعشة عيفة تجرى مسرعة فى جسمها كأنها رعشة الكهرباء وإذا هى تجفل كالخائفة ثم تأمن وتسكن حين تسمع صوتى وأنا أقول لها: لا تراعى فأنا أختك آمنة، ما وقوفك الآن على هذا النحو مائلة ذاهبة النفس، كأنك الصنم؟ ماذا تنتظرين من الليل؟ وماذا تبغين من السماء؟ قالت وقد هوت إلى الأرض كأنها البناء المتهدم وصوتها مضطرب ممزق، يتمزق له قلبى كلما ذكرت: لا أنتظر شيئاً ولا أبتغى شيئاً...

ثم عادت الرعشة السريعة فهزت جسمها هزاً، ثم انهمرت دموعها انهمازاً، ثم احتبس صوتها فإذا هى تضطرب اضطراباً عنيفاً، وتسفح دمعاً غزيراً، وترسل أنفاساً عيفة متقطعة، وأنا أجتو إلى جانبها وأضمها إلى وأقبلها، وأحاول أن أرد إليها الهدوء والأمن وسكون النفس ما وسعنى ذلك، حتى إذا مضى وقت غير قصير سكن جسمها بعد اضطراب، وانطلقت أنفاسها بعد احتباس، ومضت دموعها تنهمر، وأوت إلى ذراعى كأنها الطفل قد استسلم إلى أمه الرءوم، وأطمأن رأسها إلى كتفى، وقضت كذلك لحظة ما نسيت ولن أنسى عذوبتها، وما أرى إلا أنها أحست هذه العذوبة! فقد ثابت إليها نفسها وراجعها رشدها، ولبثت حيث كانت حتى بعد أن سكنت دموعها، كأنما أعجبها مكانها منى، وكأنما وجدت شيئاً طالما كانت تتوق إليه فلا تجده ولا تظفر به، ثم سمعتها تقول بصوت خافت بعيد: لقد كنت أحب أن أكون بهذا المكان من أمى لا منك، أنت أيتها الأخت الصغيرة؛ فإنك لم تخلقى لتدلى أختك وتمنحها مثل هذا العطف والحنان.

يا لك من ليل مظلم عريض تضطرب فيه هذه الأضواء الضئيلة البعيدة التى تفنى، ويبسط عليه هذا السكون المخيف ظلالات لا حد لها، ثم يندفع فيه من حين إلى حين صوت هذا الطائر العزيز كأنه سهم مضى ينطلق فى بحر من الظلمات!

كل شيء هادئ مطمئن من حولنا حتى نفس هذه الفتاة التي كانت تائرة منذ لحظة فقد اطمأنت وسكنت، وانتهت إلى حال تشبه النوم، وإنى لآخذ نفسى بالهدوء وأكرهها على الاطمئنان، وألزم جسمى السكون فى هذا الوضع الذى هو عليه ليبقى هذا الرأس البائس المحزون مستريحًا إلى هذه الكتف الصغيرة الحنون.

ولكن الفتاة ترفع رأسها وتستوى جالسة، ثم تبسط ذراعها فتطوق بها عنقى ثم تضمنى إليها، ثم تقبلنى ثم تقول: إياك أن تفعلنى ما فعلت أو تخدعنى كما خدعت أو تدفعنى إلى مثل ما دفعت إليه. إنك أن تفعلنى ترى نفسك فى مثل ما تريننى فيه الآن من الجزع والهلع، ومن اليأس حتى من رحمة الله، ومن القنوط حتى من روح الله الذى لا يقنط منه إلا الكافرون.

قلت: وماذا فعلت إذن؟ وما هذا الشر الذى دفعت إليه؟ وما هذا اليأس الذى تغرقين فيه؟ وما هذا الهم الثقيل الذى صب علينا صبا لم نكن ننتظره ولا نتوقع له مقدما؟ قالت وهى تقبلنى: لست أدرى أحدث بذلك أم أكتمك إياه؛ إنى لأعتدى على سنك أن تحدثت إليك، وإنى لأعرضك لمثل ما أنا فيه إن كتمت الحديث.

قلت: فإن صمتك لن يغنى الآن شيئاً؛ فقد عرفت أن هما ثقيلاً ألم بنا، وأن حزناً ممضاً يمزق قلبك وقلب أمانا، وأن يأساً مهلكاً قد استأثر بنفسك استثناءً، وما أنا بمقلعة عن السؤال والبحث والتفكير حتى أعلم علم هذا كله، وإنى لحمقاء إن قبلت أن أنزع من ذلك العيش الناعم السعيد الذى كنت أستمع به دون أن أعلم لماذا أنزع منه نزعا، فحدثنى حديثك، فمن يدرى لعل فيه لى عظة ولك عزاء.

وارتفع الضحى من الغد فإذا ضوءه المتدفق يغمر فتاتين معتقتين قد أغرقتا فى نوم عميق، ولا يوقظهما منه حر الشمس المحرقة، ولا مس الأرض الغليظة، ولا اضطراب الدواجن من حولهما وهن يزدحمن على ما ينثر لهن من حب، ويختصمن فيما يصب لهن فى الصحاف من ماء، ويخفقن بأجنحتهن فى الهواء مقبلا مدبرات، واقعات طائرات، ينادين ويتاجين ويتغانين، قد ملأهن إشراق الصبح مرحًا، فملأن الجو حياة ونشاطًا وحبًا.

وكان هذا كله كان يدعونى دعاء ملحًا من أعماق النوم الذى كنت مغرقة فيه، ويدينى قليلاً قليلاً من اليقظة، وإذا أنا أتلقى الحياة ون أن أتمثل الحياة، وأستقبل النشاط دون أن أشعر بالنشاط؛ ثم أحس كأن شيئاً خفيفاً رشيقاً قد مس كتفى مساً يسيراً فأنتبه، ولا أكاد أفتح عيني وأتى بعض الحركة حتى أرى حمامة مذعورة قد ارتفعت غير مسرفة فى الارتفاع ولم تكذ تطير حتى وقعت فى رشاقة وظرف غير بعيد، فأستوى جالسة وألقى نظرة إلى أختى وقد ثاب إلى حديثنا كله مرة واحدة فملأ قلبى إشفافاً وحباً وحرزاً، وتقع عيني عليها وقد استراح جسمها المتعب، واستقر قلبها المضطرب، وهدأت نفسها الشائنة، وزالت الراحة عن وجهها ذلك الغشاء المظلم الكئيب، فبدت نضرتة حلوة مشرقة شائقة كأنها نضرة الزهر وقد تفتح لضوء الصبح وقطر الندى، وإذا فى هذا الوجه الهادئ النضر جمال للعين، وفتنة للعقل، ومتعة للقلب، وإذا أنا أنظر إليه فلا أكاد أحول عيني عنه، مستريحة معجبة مكبرة، ولكنى أسمع من ورائى صوتاً خافتاً يملؤه الحنان والحزن ويقول كأنه يتحدث إلى: انظرى.. انظرى.. وأطيلي النظر! ألسنت ترينها حسناء رائعة الحسن؟

فألنفت وإذا أنا جالسة تنظر إلى الوجه الذى أنظر إليه، وما أشك فى أن نفسها كان تستعرض خواطر كالتى تختلف على نفسى، وفى أن قلبها كان يتأثر بعواطف كتلك التى كانت تملأ قلبى، فاسألها: ما جلوسك هنا فى هذه الشمس المحرقة؟ فتجيب: لقد كنت أملاً عيني بمنظركما الجميل.. ثن تنهض مولية فى شىء من الإسراع وهى تغالب شجى يريد أن ينفجر، وتحرص هى على أن يظل دفيناً.

وأقيم أنا فى مكانى ذاهلة أو كالذاهلة، أنظر إلى أختى التى لم تستيقظ بعد، وإلى أمى التى تسرع مولية تريد أن تهبط أسفل الدار، وأفكر فى هذه الفتاة اليائسة وفى هذه المرأة البائسة، وأسأل نفسى: أيهما أحق بالعطف وأجدر بالثناء؟ وأسأل نفسى: أيهما أحق منى بالمعونة والنصر وبالتعزية والتسلية؟ فكلتاها فى حاجة إلى العون، وكلتاها فى حاجة إلى العزاء..

هذه الفتاة البريئة لم تعرف بؤس النفس قبل الآن، وهي تستقبل الشقاء الآن مظلمًا قاتمًا ثقيلًا ملحًا، لم تدعه ولم تسع إليه، وإنما أكرهت عليه إكراها و أغريت به إغراء، ثم دفعت إليه دفعًا وهي الآن غريق مشرفة على الموت، تريد أن تقاوم وتجاهد الموج ما وسعها الجهاد لا تجد ما تعتمد عليه أو تتعلق به.

وانها لفي ذلك إذ ساق القدر إليها من أختها الصغيرة ثمامة تستطيع أن تستمسك بها وتستبقى فضلًا من أمل وحظًا من رجاء.

وهذه المرأة التي لم تبلغ الشيخوخة بعد ولكنها قد فرضت على نفسها حياة الشيوخ: حرمانًا متصل، وانصراف عن كل ما في الحياة من لذة، وإعراض عن كل ما في الحياة من متاع، واكتفاء بما يقيم الأود ولا يدنى من الموت، ونظر متصل إلى هذا الماضي القريب الذي يملؤه الحزن ويفعمه الأسى، وتضطرم فيه هذه النيران التي تحرق قلب المرأة حين تحب، فلا يسعها الحب، ولا تلقى ممن تحب إلا خيانة وخداعًا وغدرًا.

وانها لفي ذلك محزونة لأمسها، يائسة من غدها، معرضة عن يومها، وإذا الحياة تتكشف لها عن خطب جديدة ثقيل، ليس أقل نكرًا ولا أهون أمرًا من تلك الخطوب التي بلتها في حياتها الماضية، فهي تنظر وراءها فلا ترى إلا ظلمة، وتنظر أمامها فلا ترى إلا ظلمة، وتنظر عن يمين وشمال فلا تجد عونًا ولا نصيرًا.

لقد أنكرتها الأسرة وجفاها أهل ونفتها القرية، وأصبحت وحيدة تعول ابنتين بائستين، وإذا هي تتكبد في إحداها لأمر لا تعلمه وقضاء لم تكن تنتظره، كلتاها بائسة، وكلتاها شقية، وكلتاها خليقة أن تجد من الأخرى ما تحتاج إليه في هذا كله، ولكن هذه النكبة الملمة، والكارثة الملحة قد باعدت بينهما: فالأم محنقة على ابنتها، والفتاة نافرة من أمها، لا يتصل بينهما حديث ولا تثبت عين إحداها في عين الأخرى، إنما تتفاهمان بالإشارة أو الجمجمة، فإذا التقت أعينهما فما أسرع الإطراق إلى رأسيهما! ثم ما أسرع ما تدعو حاجة مرتجلة منتحلة إحداها إلى أن تولى مديرة لتتأى عن صاحبها فلا يكون بينهما نظر ولا حديث.

هل أستطيع أن أرد ما بينهما إلى طبيعة الصلة بين الأم البائسة والابنة المحزونة؟ بل هل أستطيع أن أعيد الأمر بيننا إلى شيء مما كان عليه قبل هذه الكارثة من هذه المودة السهلة التي لا تكلف فيها ولا تصنع ولا رياء؟ بل هل أستطيع قبل كل شيء أن أعلم أين نحن وإلى أين نمضي، وماذا تريد بنا أمنا هذه التي تأمر وتتهى في لهجة حازمة صارمة وإيجاز مقتصد لا يقبل حوارًا ولا جدالًا؟ ذلك أجدر أن أفكر فيه، وأخرى أن أسعى إليه، فلأتبعن أمي إذن ولأتلطفن

لها، ولأسألنها فى أناة ومودة ورفق حتى أعلم علمها، ثم أنظر بعد ذلك فيما أتى، أو فيما يمكن أن نأتى من الأمر.

كل هذه المعانى تضطرب فى نفسى، وعينى لا تكاد تفارق هذا الوجه الهادئ الذى يدل هدوءه على أن أختى ما زالت فى تلك الأعماق البعيدة التى كنت فيها منذ حين، لم يبلغها ضوء الشمس وحرها، ولم يؤذها مس الأرض وغلظها، ولم يصل إليها اضطراب الدواجن وما تملأ به الجو من نشاط ومرح وصياح.

فأنهض متناقلة مترفقة حتى أهبط فناء الدار ألتمس أمنا، وما كان أيسر الوصول إليها فقد اعتزلت غير بعيد من السلم وجلست منحنية تعبت فى الأرض بأصابعها عبثاً يدل على شىء من الذهول، كأنما كانت تتاجى هما ثقيلًا أو تتبع خاطرًا بعيدًا، حتى إذا بلغت مسست رأسها بيدي وسألتها مداعبة: ما هذه اللعبة التى تلعبين؟ وهلا دعوتى لأكون شريكك فى اللعب؟! فإن مثل هذه اللعبة لا تستقيم إذا انفردت بها لاعبة واحدة...

قالت وقد رفعت إلى رأسًا حزينًا: أتريننى ألعب يا ابنتى؟ قلت: فما عسى أن تفعلنى بهذا التراب الذى تذهب فيه أصابعك وتجئ؟

ثم أنهضتها فلم تمتنع على، ومضيت بها إلى ناحية من الفناء لا يكثر فيها اضطراب الأضياف، ونظرت إليها فإذا هى تنقاد إلى مستسلمة، وإذا حزنها العميق وحنانها القوى قد فاضا على وجهها الشاحب فألقيا عليه مثل وداعة الأطفال.

هنالك أحسست من نفسى قوة، وشعرت كأنى أنا الأم "زهرة" وكأنها هى الفتاة "آمنة" فاتخذت صوتها ولهجتها وألقت عليها فى غير تكلف هذه الأسئلة: ماذا تريدين؟ وماذا تصنعين؟ وأين تذهبين بنا؟

قالت وقد انحدرت دموعها: لا أصنع شيئًا، ولا أدرى أين أذهب بكما، وإنما أريد أن أنأى بكما عن هذه المدينة الموبوءة، قلت: ولكن إلى أين؟ قالت: سنرى. قلت: ومتى نرى؟ قالت: لا أدرى. قلت: فقد ينبغى أن تدرى؛ فما يحسن بثلاث من النساء أن يهمن فى الريف على وجوههن، تلفظهن قرية وتتلقاهن قرية أخرى، يؤويهن هذا العمدة وقد يردهن ذاك. قالت: فبماذا تشيرين؟ قلت: أما إذا كرهت المدينة وباعدت بيننا وبين تلك الدور التى كنا نحيا فيها حياة أمن وهدوء..

وهنا أخذتها رعدة قوية وقالت فى غضب وحدة: أى أمن وأى هدوء إنك إذن لم تعلمى. قلت: بل علمت. قالت: وقد اجترأت البائسة على أن تلقى إليك هذا الحديث! ألم يكفها ما اقترفت

من الإثم وما انغمست فيه من الدنس حتى أردت أن تكونى لها شريكة! قلت فى رفق: دعيها وما هى فيه الآن وعودى بنا إلى ما كنا فيه:

أما إذ كرهت المدينة وباعدت بينا وبين ما كنا نستعين به على الحياة من عمل، فإنى أرى أن نلتمس العمل فى قرية من هذه القرى عن غنى من هؤلاء الأغنياء، قالت: لقد فكرت فى هذا، ولكنى أرى أن ليس إليه من سبيل! فإن المرأة لا تستطيع أن تعيش ولا أن تأمن، ولا أن تستقيم أمورها إذا لم يحمها أب أو أخ أو زوج، قلت: فليس لنا أب ولا أخ ولا زوج! قالت: بل لنا من يحمينا، وقربتنا التى نفتها عنها أحق بنا ونحن أجد أن نعود إليها، ولئن بلغناها ليعلمن الذين جفونا ونفونا أن من العار أن تتفى الأسر نساءها وكرائمها! فالمرأة عورة يجب أن تستر، وحرمة يجب أن ترعى، وعرض يجب أن يصاب.

قلت: فأنت تريدين إذن أن تعودى إلى تلك الحياة البائسة التعبة التى كنت تحبينها بين قوم لا ينظرون إليك إلا شزراً، ولا يعطفون عليك إلا كرهاً، ولا يتحدثون عنك إلا فى سخرية ورحمة شر من السخرية؟ قالت: نعم! فكل هذا أهون مما لقينا، وكل هذا أهون مما يمكن أن نلقى إن مضينا فى هذه الحياة الهائمة التى لم نخلق لها ولم نخلق لنا، ولقد انقطعت تلك الأسباب التى كانت تدعو إلى جفاء الأسرة وإعراض ذوى القرى وسخر الأعداء ورثاء الأصدقاء، لقد انقطعت تلك الأسباب ويعد بها العهد، ولئن بلغنا قربتنا ليذكرن الناس بعض أمرنا حيناً من الدهر، ثم لا يلبثون أن ينسوه وأن ينسوننا، ولا نلبث نحن أن نغمس فى حياتنا الأولى ونعيش بين أهلنا بأئسات، ولكن آمنات..

قلت: وتريدين أن نبلغ هذه القرية ساعيات على أقدامنا، ننتقل من ريف إلى ريف، ونستضيف هذا يوماً وذاك ليلة، وقد أعجلتنا بالرحيل عن كل أمرنا، فتركنا متاعنا وما اجتمع لنا عند من كنا نعمل عندهم! قالت: سترين، فلن ينالكما جهد، ولن يمس حياءكما أذى، سنقيم عنا حتى يأتى من يحملنا إلى قربتنا ويبلغنا مأمنا بين الأهل والأصدقاء.

قلت: وكيف يستقيم لنا هذا؟ قالت: علمت منذ أصبحت أن اليوم فى القرية سوق يجتمع فيه الناس من أطراف الريف، فلأسعين بين الناس والبائعات، فلن أعدم بينه رجلاً أو امرأة من أهل قربتنا أو من أهل قرية مجاورة، لأحملنه رسالة إلى أهلنا، ولن يتم الأسبوع حتى يكون أذى هنا قد أقبل يحملنا إلى حيث ينبغى أن نعيش.

وهممت أن أمضى معها فى الحديث، ولكن حركة عنيفة قطعة علينا ما كنا فيه، فهؤلاء النسوة قد أقبلن يحملن الجفان والأسفاط ويدعون إلى الطعام.

ويسمع الأضياف دعاءهن، ويرى الأضياف مقدمهن فيستجبن للدعاء ويسرعن إلى الطعام، ولا بد من أن نستجيب كما استجبن، ومن أن نسرع كما أسرعن، لا بد من أن أصعد فأنبه أختى هذه التى لا تريد أن تفيق من نومها الطويل بعد أن كانت لا تريد أن تخرج من أرقها الطويل.

فأصعد، ولكنى لا أكاد أبلغ آخر السلم حتى أراها قائمة ساهمة حيث رأيتها من الليل حين أيقظنى طائرى العزيز.

وأقبل من فى الدار من النساء ومن انضم إليهن من نساء القرية البائسات على الطعام مسرعات يتزاحمن بالمناكب، ويتدافعن بالأيدى ويتزاجرن باللفظ واللحظ، ويرتفع فى أثناء ذلك منهن دعاء لصاحب الدار أن يوثق الله حزامه، ويعلى مقامه، ويصرف عنه الداء، وينصره على الأعداء.

ونحن نسعى وجلات خجلات، يدفعا الجوع والأدب، ويمسكنا الحياء والاحتشام، حتى إذا استدارت الجماعة حول الجفان قل الكلام، وقرت الأجسام، واضطربت الأيدى وعملت الأفواه. وأنا أرى هذا كله فيؤذيني منظره ويقع من نفسى موقعا أليما، ما أبعد ما بين هذه الأيدى الغليظة الخشنة قد تقلص جلدتها وتقبض، وهى تغوص بما فيها من الخبز غوصا فى القصاص فتصيب منها ما تستطيع، وما بين تلك الأيدى الرقيقة الرفيقة الناعمة المترفة التى لم تكن تمتد إلى الأطباق إلا هينة، والتى لم تكن تمس ما فى الأطباق إلا بهذه الأدوات التى يعرفها أهل المدن خاصة بل يعرفها المترفون من أهل المدن خاصة!

ما أبعد ما بين هذه الأفواه الفاغرة التى يلقى فيها الطعام إلقاء على عجل فلا يكاد يستقر فيها حتى تزدرد الحلق! وكأن الطبيعة لمك تودع هذه الأفواه ثم إلى الأجواف، وما بين تلك الأفواه الصغيرة الضعيفة التى لم تكن تفتح إلا بمقدار، والتى لا تلتهم ولا تلتقم ولا تنتهى بما فيها إلى حلق تزدرد، وإنما تطيل المضغ وتستمتع بما يمسه من الألوان، ثم تنتهى به على مهل إلى حلق تسيغه فى أناة ورفق، كأنما الأكل فن من الفنون لا بد فيه من الروية واصطناع المهل والأناة!

ما أبعد ما بين هذه الجماعة التى حشرنا فيها حشرا فى فناء هذه الدار، وما بين تلك الأسرة التى كنت أعمل عندها وأجد فى خدمتها حين تجلس إلى المائدة لذة ومتاعا يعدلان بل يربيان على ما كنت أجد من اللذة والمتاع حين أجلسى إلى طعامى مع رفاقى من الخدم بعد أن يتفرغ سادتنا عن مائدتهم!

أين أجد القدرة على أن أرفع يدي مع هذه الأيدى وأحرك فمى مع هذه الأفواه! إنما أنا جالسة بين هؤلاء النساء أنظر إليهن ضيقة بهن، وأتلهى عن الجوع بهذا الخبز الرقيق المستدير الواسع أحطمه بين يدي وأصيب منه قليلا بين حين وحين، وأمنا تصيب من الطعام فى قصد واعتدال، قد حال الحزن والحياء بينها وبين إرضاء حاجتها إلى الغذاء، وأختى واجمة ساهمة كأنها فى أرض غير هذه الأرض، وفى حياة غير هذه الحياة..

ثم تفرغ الجفان ويتفرق النساء جماعات، ونهن نحن أن نتنحي ناحية، ولكننا لا نكاد نبليغ من ذلك ما نريد حتى يدركنا نسوة ثلاث يجلس حيث نجلس ويأبين إلا أن يأخذن معنا في الحديث، تقول إحداهن وكانت امرأة تختصم على وجهها أواخر الشباب وأوائل الشيخوخة، ويحتفظ صوتها كما تحتفظ حركاتها بنشاط فيه عذوبة مغرية وميل إلى الفكاهة ظاهر: ما رأيت كالليوم نسوة يستغنين بالأعين، والآذان عن الأيدي والأفواه وعن الألسنة والحلوق والأجواف.

ها أنتن أولاء بيننا من أمس، وما سمعنا لن صوتاً ولا عرفنا من أمركن شيئاً، وها أنتن أولاء تستدرن معنا حول الطعام فلا تكدن تمددن إليه يدا ولا تكدان تصبن منه حظاً، كأنما يغذيكن النظر إلى الطاعمات وهن يلتقمن ويلهمن ويزدردن، وكأنما يرضى حاجتكن إلى الحديث الاستماع للمتحدثات! ثم أرسلت ضحكة سمعها من غير شك أبعد من في الدار مكاناً وسمعها من غير شك من كان خارج الدار، وانتشر معها في الجو استخفاف واستهتار ودعابة ودعاء إلى المجون، حتى إذا فرغت من ضحكها وجرت الهواء إلى جوفها جرّاً هو أشبه بالشهيق المثير قالت: أهذا شأنكن بالقياس إلى كل ما تحتاج إليه النساء من لذة وراحة ورضاً؟ إنكن إذن لبائسات.

قالت هذا ثم التفتت إلى أمتنا فألقت عليها نظرة قوية تريد أن تثيرها إلى الحديث وتكرهها على الجواب، ولكن أمتنا لم تنطق بحرف ولم تعرف كيف تلقى هذا السيل المنهمر من اللفظ، وإنما انعقد لسانها انعقاداً، وظهر على وجهها اضطراب شديد، ولم تثبت عيناها لعيني هذه المرأة الجريئة اللعوب فغضتاهما، وأطرقت برأسها إلى الأرض كأنها الطفل الصغير يلح عليه الكبار في السؤال عن بعض أمره فيمنعه الحياء من أن يجيب.

هنالك التفتت هذه المرأة إلى وقالت: هذه أمك صامتة لا تقول، وهذه أخذتك واجمة لا أمل في أن تفهم ولا في أن تجيب، فتكلمى أنت فإني أرى في عينيك جرأة وعلى وجهك شيئاً يشبه القحة، وما أظن أن في عينيك ملحاً..! قولى من أنتن ومن أين تقلبن؟ وما خطبكن؟ وما إعراضكن عن الطعام؟ وما إيثاركن الصمت؟ قلت ولم أستطع أن أدفع الضحك عن نفسى أمام هذا الهجوم المفاجئ الغريب، وأما إغراق هاتين المرأتين الآخرين في الضحك، وإغراق أمتنا في الصمت، وإغراق أختى في الوجوم: وأنت من تكونين ومن أين تقلبين؟ وما أنت وسؤالك إيانا وإلحاحك علينا؟

قالت مسرعة تتحدث إلى صاحبتيها: ألم أقل لكما أنها "قارحة" ليس في يعينها ملح، وإنما هي التى ستستمع لى وترد على! ثم التفتت إلى وقالت: تحقيق.. أستمعين؟ تحقيق.. أنا مكلفة أن أخضعك له، ستعرفين من أنا، وستعلمين أنى تعودت التحقيق مع النساء ومع الرجال

أحياناً والإلحاح فى السؤال على أولئك وهؤلاء.. ثم أرسلت ضحكاتها ورجعت شهيقها، سألتنى ملحة: من نكون من أين نقبل؟!!

وما زالت هذه المرأة تداعبنا وتلاعبنا عنيفة حيناً ولينة حيناً آخر، جادة حيناً وهازلة فى أكثر الأحيان، وصاحبها تعيناتها على بعض ما تريد من ذلك، حتى أنسنا إليهن وتحدثنا معهن شطراً من الضحى وعرفت من أمرهن ما رغبى فى ألا تتقطع الصلة بينى وبينهن ما أقمنا فى هذه الدار، وكن جميعاً من أهل المدينة التى أقبلنا منها، قد بلغن هذه القرية معاً قبل أن نبلغها نحن بساعات، أقبلن راكبات وأقبلنا نحن سعيّاً على أقدامنا. فأما هذه المحققة التى كانت تسأل وتلح فى السؤال، وتمازح وتغلو فى المزاح، فكانت امرأة عظيمة الخطر، وعرفت من أمرها فيما بعد ما كنت أجهل، وتبينت أن اسمها كان شائعاً ذائعاً على جميع الألسنة وفى جميع الأنحاء لا فى المدينة وحدها بل فى كثير مما يحيط بها من القرى والعزب والضيايع.

كان اسمها "زنوبة" وكان تاريخها حافلاً بالخطوب والأحداث؛ وكان شبابها مغامرة كله وفتنة لنفسها ولكثير من الناس، كانت تجيد الرقص وتفتن به شباب المدينة وتفتن هؤلاء الشباب الذى كانوا يفدون على المدينة فى فصل الشتاء ليشغلوا فى معمل السكر، وكانت تفيد من فصل الشتاء لهواً كثيراً ومالاً كثيراً وصوتاً بعيداً، حتى إذا تولى عنها الشباب شيئاً وأخذت تدنو من الكهولة قليلاً قليلاً آثرت ظاهراً من القصد وتكلفت شيئاً من الاعتدال، وأسدت على مجونها ودعابتها ستاراً رقيقاً تستطيع بعض الأبصار أن تنفذ إلى ما وراء فتدل أصحابها على ما يبتغون.

ثم اتصلت بالشرطة ورؤسائها فى المدينة. وكانت وسيلتها إلى هذا الاتصال معرفتها للشبان، ومخالطتها للرجال، وانسلالها إلى بعض الأمور واستماعها لكثير مما يلقى من الحديث، وعلمها بكثير مما يقع من الحوادث ويلم من الخطوب فكانت عيناً من عيون الشرطة تنفذ إلى كثير جداً مما لا تنفذ إليه عيون الرجل، وكانت تفيد من ذلك مالا، وتكسب من ذلك هيبه، فكان الناس يخافونها، ويتلطفون لها، وكانت الشرطة تستعين بها استعانة خاصة خصبة حين يصرع صريع بالليل، ويبحث المأمور وأعوانه عن القاتل فلا يظفرون به، هنالك كانت تنقل إليهم ما تسمع من الأحاديث فى بعض أندية الشباب وفى داخل كثير من البيوت، وحين يعتدى اللصوص على دار من الدور ثم تعمى آثارهم وأخبارهم عن الشرطة، وكانت أنفع ما تكون للشرطة وأقدر ما تكون على إعانتها حين يهاجم الطاعون أو الكوليرا أو أى وباء من هذه الأوبئة أهل المدينة وما حولها من القرى، وحين تريد الحكومة أن تستكشف المرضى وتعزلهم فى تلك الخيام التى كان يكرهها الناس أشد الكره ويفرون منها أكثر مما يفرون من الموت.

هنالك كنت ترى "زنوبة" حركة متصلة كأنها النحلة، لا تستقر ولا تهدأ ولا تعرف السكون والاطمئنان، هى فى كل شارع وفى كل حارة وفى كل زقاق وفى كل بيت، ونقالة الصحة من

ورائها تجوب الشوارع والأزقة والحارات وتختطف المرضى من بيوتهم اختطافاً، وفي تلك الأوقات كان الناس ييغضون زنوبة أشد البغض، ولكنهم كانوا يضطربون إلى لقاءها واحتمالها، ييسمون لها ويلعنون الوباء لأنه لم ييسسها ولم يحملها على هذه النقاله ولم يضطرها إلى هذه الخيم التي تضطر إليها الناس.

وقد جمع زنوبة من كل هذه الحرف مقداراً لا بأس به من المال. فلما تقدمت بها السن بعض الشيء أخذت تستثمر ما جمعت وتنميه وقد سلكت إلى ذلك طريقين: فهي من ناحية مرابية، تقرض الجنية بثلاثة أمثاله منجمة على العالم، وتشتري من الأسواق فى المدينة والقرى ما تستطيع شراءه من الحب رخيصةً ثم تبيعه بين الفقراء والبائسين، تشتط عليهم فى الربح لأنها تصبر عليهم فى اقتضاء الثمن، وقد زهد الشباب فيها وقل نشاطها إلى اللهو الجرىء، فبحثت ثم بحثت ثم اختارت لنفسها رجلاً من الخفراء غريباً عن المدينة وفد إليها منذ حين، قوى البنية طويلاً ضخماً مخيف الصوت، ولكنه على ذلك ضعيف النفس سيئ الخلق، مدخول الضمير، فاتخذته زنوبة لنفسها زوجاً أو خليلاً، وعاشت معه عيشة يقرها القانون وتكرها الأخلاق والدين، ويمقتها أهل المدينة أشد المقت، وهى حين رأيتها لأول مرة كانت قادمة على القرية التى كنا فيها لتشتري ما تستطيع شراءه من القمح والذرة والفول، ثم لتعود به إلى حيث تمتص به أموال الفقراء والمعدمين.

ولم تكن "خضرة" أقل خطراً من زنوبة ولا أهون شأنًا، وإنما كانت مثلها معروفة بعيدة الصيت، يتحدث الناس بها وبأبنائها حين تخرج من لمدينة وحين تعود إليها، ويشقى بها الرجال والنساء جميعاً، ويسعد بها الرجال والنساء جميعاً أيضاً.

كانت دلالة؛ تفد إلى العاصمة من حين إلى حين، فتجلب منها مقداراً غير قليل من هذه العروض الخفيفة اليسيرة الرخيصة التى هى مع ذلك فتنة للنساء وشقاء ومتمعة للرجال. لم يكن فى المدينة بيت مترف إلا وبابه مفتوح لخضرة تدخله جهراً وتدخله سراً أيضاً، ونفس سيدة البيت مفتوحة لخضرة أيضاً تتلقى أحاديثها وتسمع أبناءها، وقد تحملها الرسائل والأنباء، وكان نشاط خضرة يشتد ويعظم إذا كان الشتاء وجرت فى النيل بواخر كوك مصعدة وهابطة؛ فقد كانت خضرة تذهب إلى القاهرة وتعود ومعها ما تشتري من البضائع والعروض، تصطنع هذه البواخر لأن أجور النقل فيها كانت يسيرة للدرجة الثالثة، ولأنها كانت تستطيع أن تستصحب فيها من الحقائق والمتاع ما لم تكن تستطيع أن تستصحبه فى القطار.

كانت إذا عادت إلى المدينة تسامع بها الناس، وانتظر النساء مقدمها عليهن وزيارتها لهن. كانت أسعد السيدات هذه التى تظفر بزيارتها الأولى تسبق إلى الخير ما عندها من ضروب الأقمشة على اختلافها؛ ومن صنوف الأعطار، ومن هذه الأدوات اليسيرة الهينة التى تحتاج إليها

النساء ويتنافسن فيها، ومن أنواع الخرز بنوع خاص، ومن هذه الحلقات الزجاجية المختلفة التي يتخذها النساء حليًا لأذرعهن يعالجن لبسها علاجًا شديدًا دقيقًا خطرًا وقلما يفرغن من هذا العلاج دون أن تكون إحداهن قد أحدثت في يدها أو في ذراعها جرحًا بليغًا، وكان الأسبوع الأول لعودة خضرة من القاهرة عيدًا متصلًا في البيوت للنساء والأطفال جميعًا، أولئك يسعدن بما تعرض عليهن من عروض الزينة والمتاع، وهؤلاء يسعدون بما تجلب لهم من الحلوى وجوز الهند، ولا سميا هذه الحلوى التي كانت تجلبها خضرة من القاهرة ولم يكن من الممكن ولا من اليسير أن تصنع في المدينة؛ فقد كانت رقيقة لينة لا تشقى بمضغها الأضراس وتجد فيها الأفواه والحلوق لذة لا مشقة فيها ولا عناء كهذه اللذة التي تجدها فيما يصنع في المدينة من الحلوى السمسامية أو الحمصية الغليظة اليابسة التي يتعاون على إذابتها الريق والأضراس واللسان فلا تبلغ منها ذلك إلا بمشقة وجهه.

وكانت خضرة تحمل إلى الفتيات النواهد فتنة لا تشبهها فتنة بهذه المناديل الملونة التي كانت تجلبها لهن والتي كن يَفْتَنْنَ في إدارتها حول رعوسهن وفي اتخاذها سجونًا فتانة خلابة لشعورهن النقال. ولا تذكر هذه الضفائر أو هذه الخيوط التي تنظم فيها قطع دقيقة رقيقة ضيقة من المعدن والتي توصل بالضفائر، وبضفائر الفتيات النواهد خاصة، فيكون لها على ظهورهن منظر حسن، ويكون لها رنين حلو إذا مشين أو أتين بعض الحركات، وكان الرجال يحتملون عودة خضرة من القاهرة باسمين بل مغتبطين أول الأمر، يجدون في ذلك رضا بريئًا وتلهية نقية للنساء والفتيات، فإذا مرت أيام وكثر تردد خضرة على البيوت واشتد طمع النساء فيما تعرض عليهن من المتاع، وظهرت رغبة النساء ملحة على وجوههن وفي حديثهن وفي تنكرهن للرجال حين يظهرون تمنعًا أو إباء، ضاقوا بخضرة أشد الضيق، وودوا لو تذهب مرة إلى القاهرة فلا تعود.

وكانت خضرة إذا فرغت من إرضاء نساء المدينة على اختلافهن في الطبقة والثراء، وتقلب بما يبقى لها من سقط المتاع بين ما يحيط بالمدينة من قرى الريف. وهى فى ذلك اليوم الذى لقيتها فيه كانت تزور القرية ومعها حقيبتان أو ثلاث فيها من هذه الدوائر الزجاجية ومن الخرز والمناديل الملونة ما لم تقبله المدينة وما تتلقاه القرى بلهفة شديدة وما لعله يورق ليل كثير من الريفيات ويملاً أحلام كثير من عذارى الفلاحين.

ومن الخطأ أن يظن أن "نفيسة" كانت أقل شهرة من صاحبتيها أو أيسر منهن شأنًا عند أهل المدينة وعند أهل الريف، كانت متقدمة فى السن قد بعد عدها بالشباب، وتركت الشيخوخة فى وجهها وصوتها وجسمها كله آثارًا قبيحة منفرة للنفوس، ولكنها على ذلك كانت دخيلة فى كل بيت، صديقة لكل امرأة، كانت عرافة تقص ما كان وتصف ما هو كائن، وتبئ بما سيكون،

وكانت لها صلة قوية بالجن والشياطين، تسعى بالرسائل بينهم وبين النساء وتستخدمهم فى كثير مما يشغل حياة المرأة الجاهلة السذاجة التى لا تزال تؤمن بأن سلطان الجن على الناس لا حد له، هذه ضيقة بزوجها لأنه يخونها أو يؤثر عليها ضررتها فهى تستعين بنفيسة لتسلط عليه عفريناً من الجن يصده عن خليلته أو عن زوجته، وهذه تحس من زوجها نشوراً أو إعراضاً، فهى تستعين بنفيسة لتتخذ لها من الطلسمات ما يعطف عليها زوجها ويجعله قعيدة دارها، ولم تكن نفيسة أقل تأثيراً فى نفوس الرجال والشبان منها فى نفوس النساء والفتيات؛ فقد كانت تحسن استشارة الودع وسؤاله عن الغيب، وقد كان تحسن استعطاف النساء إذا نفرن أو أعرضن، وقد كانت تحسن تسخير الجن فى قضاء ما يلتوى من الحاجات، وكانت نفيسة مشغولة دائماً، لا تكاد تستريح من السعى بالرسائل والحاجات بين رجال المدينة ونسائها وبينهم جميعاً وبين الجن والشياطين، ولكن شهرتها بذلك قد جاوزت المدينة ووصلت إلى القرى وتسامع بها أهل الريف فأخذوا يسعون إليها، ثم أخذت هى تسعى إليهم وتتنقل بينهم بسحرها وطلسماتها وودعها وهى حين رأيته كانت تزور القرية لتحمل إلى أهلها بعض ما يحتاجون إليه من أنباء الغيب.

ولم يكد يتصل الحديث بيننا وبين هؤلاء النسوة حتى كانت نفيسة أسرعهن إلى نفوسنا، وأحرصهن إلى أن تمتلكنا وتصل بيننا وبين أصدقائها من الجن والعمارة، لم تجد فى ذلك مشقة ولم تتكلف له جهداً، فهذه الفتاة الذاهلة التى لا تكاد ترى ولا تسمع ولا تفهم ولا تجيب خليفة أن تلتفت العجوز الساحرة إلى نفسها، وقد فعلت.. فما أكثر ما تلح هذه العجوز فى السؤال لتعرف ما بهذه الفتاة! والفتاة لا تجيب! وأما أشد منها حرصاً على الصمت وإغراقاً فيه، والسؤال يتجه إلى دونهما، فأضطر إلى أن أزعم بأن بأختى علة وقد أعيت الطبيب، وداء لا نعرفه ولا نجد له دواء، وما أيسر ما تفض السرة وينثر منها الودع على الأرض! ثم ما أسرع ما تعمل فيه يد نفيسة جمعاً وتفريقاً، وضماً ونثراً تلائم بينه وتخالف، وتتخذ من أشكالاً تقرأ فيها من أنباء الماضى والحاضر والمستقبل أعجب العجب.

إنى لأراها الآن وقد مضت أعوام منذ ذلك اليوم وهى تنتظر فى الودع وتطيل النظر، ثم تظهر على وجهها هذه الآيات التى تدل على أنها تحاول أن تفهم شيئاً فلا تستطيع، وإنى لأسمع صوتها المحطم الذى كان هامساً دائماً مهما يرتفع. وإنى لأحفظ جملها منذ ذلك اليوم ما نسيتها ولن أنساها، وكيف أنساها وقد صدقها الزمان؟ نظرت إلى ودعها، ثم أطالت النظر فيه، ثم رفعت عينها إلى أختى فأطالت النظر فى وجهها، ثم عادت إلى الودع فأثبتت عينها فيه، ثم رفعت رأسها وهى تقول للفتاة: إن أمرك يا ابنتى لعجيب، إنى أراك بين اثنين: أحدهما يحبك وسيؤذيك، والآخر آذاك وسيحبك، وإنى لأحاول أن أفهم فلا أستطيع، والرأى لك يا ابنتى أن تستشيرى سادتنا من الجن أو سادتنا من الأولياء.. وما أرى أن هذا عليك عسير؛ ففى هذه القرية

القريبة منا والتي تستطيعين أن تبليغها في ساعة وبعض ساعة ما تحبين: فيما مقام سيدنا فلان،  
وإنه ليأتى بالأعاجيب وفيها دار فلانة وإن قرينها من الجن ليحدث بالأعاجيب أيضًا، ولم تك  
نفيسة تتطق بالجملة الأولى من حديثها حتى وثبت أننا كأنما دفعت إلى الوثوب دفعًا آليًا،  
وانطلقت مسرعة فلم نرها إلا بعد وقت طويل

obeykhalid.com

ها أنت ذا أيها الطائر العزيز تنتشر فى الجو المظلم الساكن نداءك السريع البعيد كأنه استغاثة المستغيث... ما خطبك؟ وما أنباؤك؟ وما الذى يغريك بى ويسلطك على؟! لا أكاد أمضى فى النوم حتى تسرع إلى فتوقظنى، كأنما أخذت على نفسك أو أخذ غيرك عليك عهداً ألا تخلى بينى وبين النوم، وكأنما كلفت نفسك أو كلفك غيرك أن توقظنى إذا تقدم الليل لتظهرنى من الأمر على ما كان خليفاً أن يفوتنى إن استسلمت للذة الأحلام...! ابعث نداءك سريعاً بعيداً أولاً تبعثه فقد أيقظتتى، وما أرى أنى سأعود إلى النوم دون أن أشهد شيئاً كالذى شهدته أمس حين كانت أختى ماثلة ذاهلة كأنما تنتظر أخبار السماء، إنى لأشعر بأن سأراها ماثلة ذاهلة حيث رأيتها أمس، وإنى لأتهياً للنهوض إليها، ولكن نداءك لا ينقطع، إن لك لشأنًا..!

ماذا! إن جو الليل المظلم الساكن المهيب ليس خالصاً لك هذه الليلة كما تعود أن يخلص من قبل. ماذا أيقظ الطير؟ فإنى لأسمع خفق أجنحتها، وأحس كأنها منتشرة قد خرجت من أوكارها حائرة مضطربة فى هذا الجو المخيف. ماذا أيقظ الكلاب؟ إنى لأسمع نباحها قويا متصلا بعيداً فيه إلحاح وترجيع كأنها تدعو من لا يسمعاها.

ماذا أيقظ الناس؟ إنى لأحس حركة خارج الدار، إنى لأسمعهم يتداعون ويتنادون، وإنى لأشعر كأنهم يسرعون إلى غاية لا أعرفها.

ماذا أيقظ من فى الدار؟ إن الحركة من حولى لتكثر وتختلط وتشتد وإنى لأشعر بالفرع قد انتشر فى الجو كما ينتشر الدخان الكثيف.

وهذا نداؤك أيها الطائر العزيز ما زال متصلا سريعاً بعيداً، كأنك لم توكل بإيقاظى وحدى، وإنما وكلت بإيقاظ الناس جميعاً والأحياء جميعاً. انظر! إن كل شيء قد استيقظ من حولك، ولكن نداءك ما زال متصلا سريعاً بعيداً، أتريد أن تتحدث إلى النجوم؟ ولكنى أنهض لكل ما أحس حولى من حركة وضجيج وعجيج واضطراب فأسأل أختى هذه الماثلة الذاهلة: ماذا حدث؟ ولكنها لا تجيب كأنها لم تسمع شيئاً، فياخذنى حنق وغيظ، وأهزها هزاً عنيفاً وأنا أصيح بها: ماذا! ألا تسمعين؟ ألا ترين؟ هنالك تنتبه وتجيبنى فى شيء من الوجل.. ماذا تريدان؟ فأتركها مستيئة منها وأهبط فناء الدار حيث اجتمع النساء يتساعلن ويتجاوبن، ويشتد بينهن لغط مختلط لا يكاد ينقضى.

هناك أجد أمنا بين هؤلاء النساء، شاهدة كالغائبة، ومستيقظة كالنائمة، تسمع ولا تقول، فإذا سألتها عما حدث أجابتني في صوت هادئ حزين: زعموا أن رجلاً قد قتل قريباً في القرية يقال له عبد الجليل، وقد جاء الصريخ إلى العمدة فأيقظ رجاله وهو يستحثهم لالتماس القاتل.

وقضينا بقية الليل ساهرات نتسمع ما يصل إلينا من الأخبار التي إن ابتدأت فلا نهاية لها، وهي أخبار القتل في المدن و القرى وفي الحقول وعلى الطريق العامة، وقد زعم من حدثنا من أهل الدار أن مقتل هذا الرجل الذي صرع الليلة قد كان أمراً محتوماً.

لقد كان هذا الرجل شيخ الخفراء في القرية، وكان قوياً شديداً البأس عظيم السطوة، وقد حمى القرية من اللصوص والمعتدين، وكانت له في القوم آثار لم تنس، فهم يطلبونه بها، وقد اضطربت القرية منذ ليال لأن هذا الرجل أقبل وقد انقضى من الليل أكثره على بيت من البيوت، فجعل يطرق بابه طرقةً عنيفاً، ويدعو صاحبه بصوت كأنه الرعد أن أفق أيها المجنون فإن اللصوص قد اقتحموا عليك الدار، فذعر أهل البيت لهذا الطرقة وهذا النداء، وأسرع الرجل إلى الباب، فما راعه إلا شيخ الخفراء يبرق ويرعد ويلح في النذير، ثم دخل الدار وطاف بحجراتها وغرفاتها يلتمس اللصوص ولكنه لم يجد أحداً. وقد استيقظ الناس واجتمعوا حوله وحول صاحب الدار وهم يقسم ويغلظ في القسم لقد رأى اللصوص يقتحمون الدار اقتحاماً.

منذ تلك الليلة تحدث أهل القرية بأن شيخ الخفراء قد تعرض للموت، وأنه إنما روع أهل تلك الدار ليلجأ إليهم ويأمن عندهم من طالبيه، ومنذ تلك الليلة استيقن أهل القرية أن قوماً قد نذروا دم شيخ الخفراء، وليسوا بمقلعين عنه حتى يقتلوه، وما هم أولاء قد وفوا بالنذر وقتلوا عبد الجليل وما هو ذا العمدة يفرق رجاله في كل صوب، يأمرهم باقتحام هذه الدار، وبالبحث عن فلان والقبض على فلان والتوثق من فلان. وهذه القرية هائجة مائجة تسأل وتبحث، وتسنقصي وترتاع.

وهذه جثة عبد الجليل طريحة غير بعيد من الجسر، وقد فارقتها الحياة بعد احتضار طويل ثقيل، وقد قام عندها الرجال يحفظونها في مكانها حتى تأتي الشرطة من المدينة، حتى يأتي المحققون. وقد أقبلوا جميعاً بعد أن ارتفع الضحى، فأقاموا حول الجثة حيناً يسألون ويشرح الطبيب. ثم أقبلوا نحو القرية ونساء الدار مشرفات ينظرن إليهم، وهم يسعون إلى بيت العمدة ليشرَبوا القهوة، ويمضوا في التحقيق، ويصبوا شيئاً من طعام.

وأنا مشرفة أنظر مع الناظرات، ولكن ماذا؟ إنى لأترجع مسرعة وقد اضطرب قلبي اضطراباً لا يكاد يستقر معه في صدري، وقد تكلفت جهداً عنيفاً لأحبس صحية كادت تتبعث من فمي، وهذه أمى تجرني إليها لا تقول شيئاً ولكنها تهبط معي فناء الدار، ثم تهدئني بعض الشيء

ثم تقول لى كالهامسة: إياك أن تظهرى أو أن تدعى هذا المكان فإنه والله إن رآك لم ينصرف حتى يستصحبك. ذلك أنى كنت قد رأيت الأمور

لماذا أكذب نفسى! لقد هممت غير مرة أن أسعى إليه وأنه أساله عن خديجة، وأن ألح عليه فى أن يستصحبنى ليردنى إلى تلك الحياة الناعمة وليحمينى من هذا الظلام الذى كنت أدفع إليه على غير إرادة ولا رأى.

نعم! لقد هممت بهذا كله، ولقد كدت أفعل، ولكنى رأيت أمى وما كانت تستصحب من بؤس قديم، ورأيت أختى وما كانت تستقبل من بؤس حديث، فأثرت شقاء هاتين الشقيتين على ما كنت أحب لنفسى من الخير، وبقيت معهما أنتظر ما تضر لهما الأيام.

آمنة.. آمنة.. أقبلى. هذا صوت أمنا ينتهى إلى، وقد انتحيت ناحية مع زنوبة وخضرة على السطح، نتحدث ألوانًا من الحديث؛ وأختى جالسة غير بعيد قد شغلت عنا بما يملأ نفسها من هم وحزن، فإذا سمعت الصوت أسرع إلى أمى فى الناحية الأخرى من سطح الدار فإذا هى قائمة قد ظهر عليها النشاط وانجلت عن وجهها سحابة الحزن التى كانت تغشيه، وهى تبتسم وتشير بيديها وتقول لى: انظرى انظرى! هذه والله إبل "بنى وركان". فأنظر فأرى أعرابيًا كأنه الشيطان وقد أناخ قريبًا من الدار جملين عظيمين وأخذ يحط عن أحدهما بعض الأثقال. أمى مستبشرة متهللة تشير وتلح فى الإشارة وتقول: ألم تعرفى خالك ناصرًا؟ ألم تعرفى هذين الجميلين؟ عرفت خالى، فما أكثر ما كنت ألقاه أيام الطفولة والصبأ، وما أكثر ما كنت أخافه حين ألقاه، وأكره منه هذا العنف الذى يبتدر كل من اتصل به، وهذه اللهجة القاسية التى يمتاز بها حديثه، وهذا الصوت القاطع الذى يلقي إليك الكلمات فى حزم وعزم وشدة لا تقبل مراجعة ولا تسمح بجدال!

نعم عرفت خالى ناصرًا، وذكرت أنى كثيرًا ما كنت أتقيه إذا لقيته، ولا أستجيب لدعائه إذا دعانى إلا كارهة، ولا أطمئن إلى ما كان يظهر لى من مودة وعطف وحنان، ولا أقبل إلا راغمة ما كان يقدم لى أحيانًا من البلح والعجوة، يريد أن يتملبنى ويترضانى.

نعم! عرفت خالى ناصرًا، وذكرت أنى كنت سيئة الظن به، شديدة النفور منه، وأنى كنت ألوم نفسى أحيانًا على سوء ظنى وشدة نفورى، حتى إذا صرع أبونا ورأيت كيف استقبل أمى بأنباء هذا المصرع وكيف قسا عليها وعلينا، ولم يفكر فى أنها أيم وفى أننا يتيمتان؛ وإنما فكر فى الأسرة وحديث الناس عنها، وما يجر عليها هذا الخطب من عار..

ثم لم تكد تمضى أيام حتى أقبل ذات صباح، مظلم الوجه قاسى اللحظ جافى اللفظ، فأقنع أمنا بوجود الرحيل، وأنبأها بأنه سيعد لهذا الرحيل عدته وسيصحبنا حتى يعبر بنا البحر ويبلغنا مأمنا فى قرية من قرى الريف.

ثم جاء هذا اليوم الذى أخرجنا فيه من دارنا، وأبعدنا فيه عن قريتنا ونفانا فيه من أرضنا، وصحبنا إلى قرية من هذه القرى المنتشرة وراء البحر ثم أسلمنا إلى القضاء، وانصرف عنا راجعًا إلى حيث ينعم مع الأسرة بالدعة والخفض وبالأمن والهدوء.

منذ ذلك اليوم لم أشك فى أن رأى فيه لم يكن خاطئًا، وأن حكى عليه لم يكن قاسيًا، وأن نفورى منهم لم يكن إلا صورة صادقًا لما ينبغى لهذا الرجل الغليظ فى قلب فتاة ضعيفة بريئة

وادعة، لم تجن على أحد شرًا، ولا تفهم أن يجنى عليها أحد شرًا، وكانت أمى وأختى تتبعانه ببصريهما، محزونتين لفراقه أشد الحزن، وكأنه كان يمثل فى نفسيهما صورة الوطن الذى نفينا عنه. أما أنا فكنت أنظر نحو الغرب الذى كان يوجه بصره شطره، ولكنى لم أكن أراه لأنى لم أكن أحفل به.

إنما كنت أحاول أن تنفذ عيني من هذه المسافة البعيدة والأمد المنفسح إلى هذا القرية المطمئنة التى أخرجت منها إخراجًا، لعلى أرى دارنا، ولعلى أرى هذا الفناء المنبسط أمامها، والذى كنت ألعب فيه مع أترابى من الغلمان والصبيان، ولكنى لم أكن أرى القرية ولم أكن أرى الدار، وإنما كنت أرى هذه الهضاب المرتفعة فى السماء بعض الشيء، وأقدر أن قرينتنا تقوم هناك على هضبة من هذه الهضاب، وكنت أرى هذا الخلط من الماء يحول بيننا وبين هذا السهل الجميل الذى ينبسط من دون هذه الهضاب، والذى كنت لا أمضى فيه قليلا حين نفينا من قرينتنا إلا أحسست كأنى أترك فيه قطعًا من نفسى أنثرها فى أرضه الخضراء نثرًا.

نعم! عرفت خالى ناصرًا وهو قائم بإزاء جميله بعد أن وضع أنقاله كأنه الشيطان، وما تصورته قط إلا شيطانًا، ومنذ هذه اللحظة التى رأيته فيها يضع أنقاله وسمعته فيها يسأل عن صاحب الدار، لم أزد إلا يقينًا بأنه شيطان، سألت خالنا عن صاحب الدار، وكان رجال العمدة قد دخلوا عليه فأنبأوه بأن رجلا أعرابيًا عليه مظاهر القوة والبأس والوقار والثراء، قد أقبل يسأل عنه، فخف العمدة لاستقبال ضيفه، وما زلت أراه يستقبل الأعرابى باسمًا وادعًا، والأعرابى يحييه فى غلظة وجفوة، ثم يقول له متعاليًا: إن النبى قبل الهدية يا عمدة. يقول ذلك ويشير إلى أنقاله التى حطها عن جمالية إشارة المكبر لها الدال بها، والعمدة يدعو بعض رجال ويشير إليهم أن احملوا هذه الأتقال وأريحوا هذين الجميلين ثم يدعو ضيفه الأعرابى رقيقًا به شاكرًا له، إلى الراحة والدخول معه إلى الدار.

وقد اطمأنت الدار بالأعرابى، ولقى من كرم مضيفه وبشاشته ما أرضاه، فلما مضت ساعة أو ساعات والناس مجتمعون حول عمدتهم يخوضون فيما تعودوا أن يخوضوا فيه من الحديث، قال فجأة: إن لنا عندك ودائع يا عمدة، فاردد علينا ودائعنا! فإله الله يأمر أن تؤدى الأمانات إلى أهلها. قال العمدة ودائعك محفوظة لك، مردودة عليك يا شيخ العرب، فما ذاك؟ قال الأعرابى: امرأة أقبلت منذ أيام ومعها فتاتان، سألتك الضيافة فأوبيتها وأويت ابنتيها وأحسن لقاءهن وأكرمت مثواهن، ونحن أعرف الناس بحق الكرام، قال العمدة: وما أنت وهذه المرأة وابنتاها؟ قال الأعرابى: هى أختى، قال العمدة: فقد نزلن على الرحب والسعة، وما فعلت إلى ما كان يجب على وما نفع هذه الدور إذا لم تفتح لإيواء الغرباء! ولكن دعائك يا شيخ العرب لن ترد عليك حتى تقيم بيننا حينًا فتسمع منا ونسمع منك، فإن حديث الأعراب يلذنا ويرضينا، وقد بعد

عهدنا به منذ رحل عنا سعيد وأصحابه، وكانوا قد خيموا في ظاهر القرية أشهرًا، ثم ارتحلوا لا عن قلى ولكن عن رغبة فى الرحيل. واتصل الحديث بين العمدة وأصحابه وبين الأعرابى حتى انقضت ساعات السمر.

obeykhalid.com

أما أنا فلم أطعم النوم فى هذا الليل الطويل الثقيل؛ لأن أختى لم تطعم فيه النوم، ولم يحتج طائرى العزيز إلى أن يوقظنى بدناؤه السريع البعيد، ولم أسمع منه هذا النداء كأنه عرف أنى ساهرة مؤرقة فلم يحتج إلى تنبيهى، فانطلق فى الجو الفسيح ينبه غيرى من الذين لم تؤرقهم الهموم والأحزان.

عدت إلى أختى كئيبة ضيقة الصدر متكلفة مع ذلك أن أخفى ما أجد من الكآبة وضيق الصدر، فأنبأتها بمقدم خالنا وبأننا مرتحلات فى أكبر الظن إذا أسفر الصبح، وجعلت أزين لها الرحيل وركوب الإبل واجتياز القرى والنظر إلى هذه الحقول المنبثة بينا وبين البحر، والنظر إلى هذا الخط من الماء الذى يفصل بيننا وبين بلادنا فى الغرب، ننظر إليه مقبلات عليه بعد أن نظرنا إليه مدبرات عنه، ثم نعبر هذا البحر ونمشى على هذا السل الجميل النضر الذى تلتقى فيه أرض الصحراء المجدبة وأرض الريف الخصبة، ثم نصعد تصعيداً هيناً كأنما نرقى فى الدرج إلى هذه الهضبة الجميلة التى تقوم من ورائها قريتنا وادعة هادئة كأنها تحتوى بها من كل طارق يأتيتها من الشرق، أنا أزين لها هذا كله بلسانى، وأتكلف لها مظهر المرتاحة لها المغتبطة به المقبلة عليه فى سرور ولذة وشوق، والله يعلم إن كنت لمحزونة أشد الحزن مبتئسة أشد الابتئاس، تتازعنى نفسى إلى ما وراءنا نحو الشرق من هذه المدينة الكبيرة التى ترامت أطرافها، وامتدت على ضفة النيل هادئة وادعة ناعمة بما فيها من حضارة وترف وثراء. والله يعلم أنى لم أكن مقبلة على هذا الغرب الذى سادفح إليه إذا أسفر الصبح إلا برغوى وعلى أشد الكره منى. ما كنت أحفل بالحقول المنبثة، ولا أجد شوقاً إلى هذا الخط من الماء، ولا أجد كلفناً بهذا السهل الجميل النضر، ولا أجد رغبة فى التصعيد الهين إلى هذه الهضبة المهيبة، ولا أجد حنيناً إلى هذه القرية الوادعة التى درجت فيها إن هناك لحقولا أخرى منبثة نحو الشرق تنحدر إلى المدينة فى دعة وفتور وتكسر جميل، وإن هناك لخطاً عريضاً من الماء أشد روعة وجمالاً وإثارة للسحر فى القلوب من هذا الخط الضئيل النحيل يمسونه بحرًا وما هو بالبحر، وإنما هى قناة لا يصح أن تذكر مع النيل، وإن هناك لدورًا شاهقة واسعة مترفة تحيط بها الحدائق البديعة، وتلذ الإقامة فيها والحياة بين غرفاتها وحجراتها واللهم بين ما يحيط بها من الأشجار والأزهار. وإن هناك لفتاة جميلة وسيمة رقيقة هى التى أحن إلى لقائها وأتحرق على تجديد العهد بها. وماذا أصنع فى تلك القرية، وأى حياة تهيأ لى فيها! كلها شظف وخشونة، وكلها جهل وغفلة، وكلها رجوع إلى ذلك الطور الأبله الذى جعلت أخرج منه قليلاً قليلاً حتى امتزت من أمى وأختى وأخذت أشعر بأنى أحسن منهما فهماً للحياة، وأصدق منهما حكماً على الأشياء، وأشد منهما صبراً على الخطوب وأمهر منهما فى التخلص من الشدائد والكارثات، ألت أدنى منهما إلى الطفولة، وأجدر منهما

أن أكون غرة غافلة؟ ومع ذلك فإنى أنظر إليهما كما تنتظر الأم إلى صبيتين ضعيفتين تحتاجان إلى الحماية والحب وإلى العطف والعون!

كذلك كنت متناقضة أشد التناقض، مختلفة أشد الاختلاف أزين لأختي، ما أبغضه أشد البغض، وأمنى نفسى بما ليس إليه من سبيل، وكثيراً ما خطر لى خاطر فلم أقف عنده لأنه كان يظهر لى سخيلاً مستحيلاً؛ كثيراً ما خطر لى أن أتغل من حولى إذا تقدم الليل، وأن أنسل من الدار وأن أهيم على وجهى نحو الشرق منسابة بين المزارع والحقول والقرى كما تتساب الحياة الدقيقة حتى أبلغ المدينة مع الصبح أو مع الضحى، وإذا أنا حيث أحب أن أكون.

لم أقف عند هذا الخاطر الذى كان يمر بنفسى من حين إلى حين مرّاً سريعاً فينفذ منها كما ينفذ السهم من الهدف؛ لأن الاستجابة له لم تكن ميسورة، وكيف الانسلا من الدار والأحراس عليها قيام! وكيف الانسياب فى الريف؟! وماذا تصنع فتاة وحيدة فى ضوء النهار فضلاً عن ظلمة الليل! وكيف لى بترك هاتين البائستين تحملان وحدهما ثقل الأحداث والخطوب؟

أقيمى أقيمى يا أمانة! وانسى نفسك ولذتك وراحتك، وانظرى إلى هذه الفتاة الجالسة أمامك، إن ذهولها ليمزق القلب، وإن شحوب وجهها ليذيب النفس، وإن هذه الدموع التى أخذت تتحدر من عينيها فى سكون وصمت لخليفة أن تصرفك عن كل تفكير إلا فيها، وعن كل عناية إلا بها، ألقى ألقى يا أمانة فى تزيين الرحيل وفى التحدث مما سنجد فى القرية من أمن، وبما سنستقبل فيها من هدوء واستمتاع بالحياة الراضية، لا تخدم أحداً وقد يخدمنا الناس.

ولكن أختى لا تسمع لى أو هى تسمع ولا تفهم عنى. هى مثلى لا تحب الرحيل، ولا تحن إلى الغرب، وإنما تحن إلى هذا المشرق الذى تركت قلبها فيه: هنالك فى ذلك البيت الجميل الذى تحيط به هذه الحديقة الواسعة ويقوم عليه ذلك العامل من أهل الريف، ويعيش فيه ذلك الشاب المترف الذى يسمونه الباشمهندس.

فى هذا البيت تركت أختى قلبها. وهى من أجل ذلك ذاهلة ذهولاً متصلاً، وهى من أجل ذلك عاجزة عن أن تسمع لنا أو تفهم عنا أو ترد علينا جواب ما نلقى عليها من سؤال، كنت أحسبها محزونة لما تورطت فيه من خطيئة، وما أشك فى أنا أحست هذا الحزن، وما أشك فى أن الندم قد عذبها تعذيباً، لكننى بعد أن أنفقت معها ليلة كاملة وتبينت من أمرها ما تبينت استقبلت الصبح ونفسى تذوب أسى وحسرة على هذه الفتاة التى تنتظر وراءها فترى حباً مضيقاً، وتنتظر أمامها فترى خوفاً مروعاً، وتود لو استطاعت أن تعود أدرجها إلى حيث الحب وما يمكن أن يستتبع من نعيم أو بؤس ومن سعادة أو شقاء ولكنها تدفع إلى أمام، تدفع إلى حيث الخوف

والروع؛ وإلى حيث اليأس والقنوط، تدفع فتدفع لا تستطيع أن تقاوم ولا أن تظهر شيئاً ينم عن مقاومة أو ممانعة، يا لها من قوة هائلة تسيطر على النفوس فتحمو حظها من الشخصية والإرادة محوًا، هذه القوة التي يسمونها الحياء ورعاية العرف وما له من حرمان!

أنا أكذب على أختي فأزين لها ما أكره، وهي لا تكذب على أحد ولا تحفل بما تسمع ولا تكذب في نفسها وأنا أسلمت نفسها للقضاء واستيقنت أن خير ما في حياتها قد انقضى منذ أمرت أمنا بترك المدينة، فلم نخالف من أمرها وإنما استجبنا طائعتين، ولكن مم كانت تخاف؟ وما هذا الروع الذي كانت آياته تبدو على وجهها بين حين وحين، والذي كان يبعث في جسمها من وقت إلى وقت رعدة قوية توشك أن تدفعها إلى الوثوب؟ إن في هذا الغرب الذي ندفع إليه خمودًا وخمولًا ويأسًا وقنوطًا، وكل هذا يسوء، وكل هذا يملأ القلب حزنًا وأسى! ولكنه لا يروع، ولا يبعث في النفوس هذا الجزع، ولا يثير في الأجسام هذه الرعدة العنيفة المخيفة. كلا! لم تكن مخطئة ولا غالية حين كان الروع يملأ نفسها، وفقدت تعلم ما لا أعلم، وكانت تقدر ما لا أقدر، وكانت تمر أمامها صور حزينة شاحبة، ممتعة مذعورة باعثة للذعر، صور فتيات ثلاث لم أسمع بهن قبل هذه الليلة، ولكنهن كئن حديث المدينة منذ عام وبعض عام، خرجن من المدينة كما خرجنا نحن، أو أخرجن منها كما أخرجنا نحن، ثم لم يعدن إليها ولم تعد إليها أسرهن، وإنما عادت إليها أحاديثهن، كلها خوف وروع، وكلها يأس وقنوط، وكلها جزع وفرع، وكلها يلونها الدم وقد يساقط منها قطرات.

ما أنت وهذه الخواطر الدامية أيتها الفتاة التعسة؟! إنما ترحلين بين أمك وأختك خالك إلى قريتك التي ولدت فيها لتعيشي بين قوم أحبوك وأحبتهم، وما زالوا يحبونك ولقد كنت تحبينهم منذ حين أتذكرين! لقد كنت أكثرنا حديثاً عنهم وحنيناً إليهم في المدينة كلما التقينا. ما بالك تخافين منهم وتشفقين من لقائهم وإنك لواجدة عندهم من الحماية والأمن ما لا سبيل إليه في حياة الغربة والعمل في هذه البيوت التي لا بعطفها علينا حب ولا ود؟! ولكنها لا تسمع لى أو لا تفهم عنى، وإنما هى مشغولة بما تركت من حب وبما تستقبل من روع، تمر أمامها صور ذلك الشاب الجميل المترف الذى أحبته، وتمر أمامها صور هؤلاء الفتيات خائفة مخفية مروعة مثيرة للروع، أما هذه التى تسمى أمينة فقد احتز رأسها احتزازًا، وأما هذه التى تسمى مارتا فقد شق صدرها شقًا، وأما هذه التى تسمى ملزمة فقد يقال أنها دفنت حية ولقيت حفتها مختنقة فى التراب، ما الذى ينتظرنى من ألوان الموت هذه؟! وأنا أرد عنها هذه الخواطر جاودة، وأتلف حينًا حتى أقبلها وأداعبها، ثم أشد فى التلطف بها حتى أستعطفها بما أسفح من موع، ثم أعنف وغلو فى العنف وأنذرها بأنى سأقص خوفها كله على أمنا وخالنا، وسأستوثق لها منها أو سأمتنع عليهما فلا أتبعهما ولا أدعا تتبعهما، وسأستجير لنفسى ولها منهما بهذا الرجل الكريم الذى نحن ضيف

عنده، ولكنها إذا سمعت منى ذلك ثابت إلى نفسها وردتني إلى الأناة والمهل، وأظهرت التجلد والصبر، وتكلفت ثقة لا تلبث أن تضطرب واطمئنانًا لا يلبث أن يزول.

يا لك من ليل طويل بغيض، لم نعرف فيه راحة ولا أمنًا ولا هدوءًا، وإنما كنا فيه نهب الندم المضمنى على ما فات، والخوف المهلك مما هو آت، والضيق الشديد بما نحن فيه، والليل يطول ويطول، كأنه يحمل أثقالاً لا قبل له بها ولا قدرة له على المسير معها، فهو يزحف زحفًا بطيئًا أشد البطء، والهـم يـغشى نفوسنا تغشياً، وهذه الخواطر المنكرة تدور فى رعوسنا دورانًا متصلًا يكاد يفنيها، ولكن ما هذا الصوت الذى يشق هذا السكون الذى نحن فيه شقًا ويردنا إلى أنفسنا فزعتين جزعتين كأنه أخرجنا من نوم عميق؟ إنه صياح الديك بودع الليل ويؤذن بمقدم الصبح. بماذا تصيح أيها الديك؟ وبماذا تريد أن تتبيننا أو تتبيننا لنا؟ قالت أختى: أتذكرين صاحبة الودع؟ إنها رأته بين رجلين أحدهما آذاني وسيحبنى والآخر أحبنى وسيؤذنى، ألم تفهمى عنها شيئًا؟ قلت: وماذا تريد أن أفهم عن هذه العجوز الحمقاء ومن هذا السخف الذى تردده فى كل مكان وتقدمه إلى الناس جميعًا؟ كل رجل عندها بين امرأتين أو بين نساء، وكل امرأة عندها بين رجلين أو بين رجال، قالت أختى، فإنى أرى هذين الرجلين رأى العين وأعرفهما كما أعرفك، وسترينهما وستعرفينهما، وستبغضين أحدهما أشد البغض وستحبين الآخر حبًا كثيرًا!

وهذا الهواء يضطرب ويضطرب معه صوت المؤذن يدعو إلى الصلاة، والناس يستيقظون ويخرجون من منازلهم أفرادًا بين ذاهب إلى المسجد وذاهب إلى الحقل ونحن نستقبل هذا الصبح الشاحب بنفوس شاحبة وقلوب واجفة ووجوه حائلة، لو استطعنا لأحجمناه، ولكننا ندعى إلى الإقدام ولا نستطيع امتناعًا على هذا الدعاء.

هذا الجمالان قد هينا للرحيل. وهذا خالنا قد قام عندهما كأنه الشيطان، وهذه أمنا تدعونا إلى الخروج فى رفق، وها نحن أولاء نودع من عرفنا من أهل الدار، ثم تمضى ساعة وساعة وإذا ضوء الضحى يغمرنا فى هذه السهل الريفى الجميل الذى تمتد فيه عن يمين وشمال هذه الحقول النظرة ترتاح إليها النفوس والأبصار، ولكن هناك نفوسًا لا ترتاح وإنما هى مضطربة دائمًا، وأبصارًا لا تستقر وإنما هى زائغة دائمًا.. إلى أين يمضى بنا هذان الجمالان!

إنما يمضيان بنا إلى حيث الأمن والدعة، وإلى حيث العز والمنعة، وإلى حيث نقضى حياتنا، كما تعود أمثالنا من فتيات القرية أن يقضين حياتهن هادئات ناعمات، حتى إذا تقدمت بهن السن وأدركتهن ميعة الشباب ونضرتة سعى إليهن الأزواج من شباب القرية أو من شباب القرى المجاورة، فأصبحت كل واحدة منهن سيدة فى البيت أو سيدة فى الخيام، واستقبلت حياة

فيها الجد والعمل والكد، وفيها الأبناء والبنات وما يستتبعون من بهجة وقرّة عين، ومن شقاء وحزن وأمل وإشفاق انظري يا ابنتي الكبيرة إلى كل هذا النور الذي يصبه الضحى علينا صباً والذي يغمرنا، والذي نمضى فيه كأنما نخوض لجة البحر، انظري إلى هذا النور الذي يغمرنا ويغمر السهل من حولنا؛ وانظري إلى هذه الحقول تتبسط عن يمين وشمال لا تكاد تنتهي؛ وانظري إلى هؤلاء الرجال والنساء وإلى هؤلاء الفتيان والفتيات وقد ملأهم النشاط، وبعث فيهم الجد حياة لا حد لها، فهم يذهبون ويجيئون وهم يعملون لا يعرفون كلالاً ولا سأمًا، وأصواتهم ترتفع لا بالشكوى ولا بالأنين وإنما ترتفع بهذا الغناء الساذج الحلو الذي يبعث في هذا الجو نغمات ساذجة حلوة، والذي يصور الأمل في غير إسراف، والرضا في غير استكانة، والاطمئنان في غير حزن، وحب العمل على كل حال، والثقة بالله على كل حال أيضًا.

انظري يا ابنتي واسمعي، ثم سلى نفسك: أتجدين فيما ترين أو فيما تسمعين ما يثير خوفًا أو يبعث روعًا أو يدفع إلى يأس؟ كل شيء آمن وكل شيء يدعو إلى الأمن، كل شيء هادئ وكل شيء يدعو إلى الهدوء، إن ظلمة الليل لمنكرة وأنها لتحب الخوف وتثيره وإنها لتبعث الأشباح من مكائنها، وإنها لتعزى القلق بالنفوس وتسلط الهم على القلوب... لقد كنت يا ابنتي تثيرين في نفسى مثل ما كان يثور في نفسك من الخوف حين كنت تتحدثين إلى ظلمة الليل تغمرنا من كل مكان، فأما الآن وقد انجلت هذه الظلمة وأصبحت لا أمد عينى إلا رأيت ولا أمد أذنى إلا سمعت، فإني لأضحك منك ومن تلك الهواجس التي كانت تروعك، ومن تلك الأشباح الحمراء التي كانت تتراءى لك وتمثل أمامك، وإنى لأضحك من نفسى ومن انقيادها لك بعض الشيء وتأثرها بك إلى حد ما، انظري واجتهدى فى أن تستحضرى الأشباح الحمراء، إنها لا تستطيع أن تظهر ولا تجرؤ على أن تتراءى فضلا عن أن تمثل أمامك أو أن تسايرك، إن الأشباح لا تحب النور ولا تستطيع أن تظهر فى وضح النهار، إنما الأشباح والخوف والفرع واليأس بنات الليل، تطمئن إليه وتطمئن إليها، تستظل به ويبسط عليها ظله المظلم الساكن المخيف؛ فإذا ابتسم الصبح وأشرق الضحى واستيقظت الحياة ذابت كل هذه المروعات وانجابت مع الظلام، فلم يبق لها أثر فى نفسى ولا سلطان على قلب. انظري إلى هذا الضحى المشرق، وأفيضى بعض إشراقه على نفسك، انظري إلى هذه الحياة التي يملؤها النشاط فأفيضى منها على قلبك، ألسنت تحسين الحاجة إلى أن ترفعى صوتك بالغناء، كما يتغنى هؤلاء الشباب عن يمين وشمال؟! ثم انظري إلى أماننا وخالنا، إن جملهما ليسعى بهما مرحًا شديد النشاط، وإنهما ليتحدثان فى هدوء وأمن واستبشار وشيء من الحنان كأنما يذكران أيام صباهما وشبابهما، وكأنما يودان لو رجعت بهما الأيام إلى مثل هذه السن التي نحن فيها أترين عليهما مظهرًا من مظاهر الريبة

أو آية من آيات المكر، أو دليلاً من دلائل الكيد؟ كلا إنهما ليمتزجان بما حولها فإذا هما حياة وأمن وأمل، فلنكن مثلهما حياة وأمن وأمل.

ويسلك حديثي هذا سبيله إلى قلب أختي كما يسلك النور والحياة سبيلهما إلى نفسها، وإذ هي تطمئن بعض الشيء لا تبسم للحياة ولكنها لا تسرف في العبوس، إنما هي كآية ملحمة تغشى نفسها ولكنها كآبة هادئة لا تثير روعاً ولا جزعاً ولا يأساً، والطريق تمضى بنا مستقيمة جميلة يحببها إلى النفوس هذا النور القوي الذي يزداد قوة وصراحة وإحاحاً كلما تقدم النهار، وهذه الحقول الخصبة يملؤها هذا النشاط الخصب وهذا الغناء الحلو يرتفع في الجو، ويمتزج بما يملؤه من الضياء والهواء، ونحن لا نجوز قرية إلا دفعنا إلى قرية أخرى، حتى إذا تقدم النهار وكدنا نبلغ العصر، وكنا قد انتهينا إلى بعض القرى قل خالنا: لقد آن لنا أن نستريح ساعات، ولست أرى بأساً بأن نستأنف السفر إذا أقبل الليل، فقد أشرفنا على بلادنا وما أرى أن الليل سينتصف حتى نكون قد بلغنا البحر عند بني فلان فإذا أسفر الصبح عبرنا إلى أرضنا، لا يرتفع الضحى حتى نكون قد انتهينا إلى بني وركان.

ثم يعرج بنا على القرية وينيح بنا عند دار العمدة وننزل من هذه الدار أحسن منزل، وإني لشديدة الرغبة في أن أنفق الليل حيث أنا، وإن أختي لتشاركني في هذه الرغبة، ولكن خالنا قد أزمع المسير مع الليل ولم تراجعه أمنا ولم تمتنع عليه، ولم يستطع مضيفنا أن يثنيه عما اعتزم؟ وبينما كنا نحن نأخذ حظنا من الراحة بعد أن أصبنا مما قدم إلينا من طعام كان خالنا قد خرج من القرية يريد فيما زعم أن يلم ببعض من كان يعرف في قرية مجاورة، فيغيب عنا ساعة وساعة وساعة، ويقبل الليل ويبسط ظلمته بسطاً، ونكاد نستئسف من استئناف السفر ونكاد نطمئن إلى البقاء حتى يسفر الصبح.

ولكن هذا خالنا قد أقبل، وهذا صوته الغليظ القاطع يرتفع بالنداء إلى الرحيل. وها نحن أولاء نستجيب لندائه، وهؤلاء أهل الدار ينكرون عليه هذا السفر حين يقيم الناس وهذا الاضطراب حين يسكن الناس، ولكن خالنا إذا عزم أمضى، وما هي إلا ساعة أو نحو ساعة حتى كان الجمالان قد دفعا بنا دفعا إلى الطريق العامة وقد أسدل الليل أستاره من حولنا إسدالاً، وقد نامت الحياة وخلت الحقول وسكن كل شيء وانقطعت الأصوات؛ إلا هذه التي تأتينا من بعيد بين حين وحين فتنبهنا، فإذا هي أصوات الكلاب تتبح في القرى البعيدة، وإلا هذه الأصوات اليسيرة الخفيفة المختلفة المتصلة التي تحيط بنا وتمتزج بسكون الليل امتزاجاً فتحدث شيئاً من الموسيقى الرائعة المروعة معاً، وهي أصوات الحشرات والضفادع المنبثة في الحقول وعلى شواطئ الأقينية.

وربما وصل إلينا من حين إلى حين صوت بعيد يأتينا من يمين أو من شمال فتتكره ونرتاع له وهو نداء بعض الطير ولعله نداء البوم، وربما ارتفع صوت خالنا ببعض غناء البدو

فرجع ترجيلاً جميلاً مخيفاً معاً، ولكنه لا يتصل إلا قليلاً ثم ينقطع، ويمضى خالنا فى حديثه مع أمنا، أو يغرق خالنا وتغرق أمنا فى الصمت العميق، وأنا وأختى نسمع لهذا كله ونتحدث فى شىء من الهمس الخائف الوجل كأنما نفر من شىء نخافه أو نقدم على شىء نخشاه، ومن يدرى، لعلنا كنا ننتظر ظهور الأشباح الحمراء، ونشفق من أن تتراءى لنا وتمثل أمامنا وتكرهنا على أن نتحدث إليها أو نتحدث عنها، والجمالان يسعيان بنا سعيًا فيه إسراع ولكنه إسراع لا يكاد يحس، وكأنهما مثلنا يفران من بعض ما يكرهان فهما يجدان فى السعى! وسكون الليل يثقل شيئًا فشيئًا، وظلمة الليل تزداد كثافة من حين إلى حين، ونفوسنا تزيد أن تهيم فى هذا السكون وتختلط بهذه الظلمة وتود لو احتواها النوم، ولكنى أنى لها أن تهيم فى سكون الليل وهى مضطربة وأنى لها أن تختلط بظلمة الليل وفى جنباتها هذه الأنوار الضئيلة الشاحبة أنوار التفكير فى غد والتذكر لأمس، والرؤية فيما نحن فيه؟! وأنى لها أن تنام وهذه بنات الليل قد أخذت تظهر شيئًا فشيئًا وتدون منا قليلاً قليلاً، وتثير فىنا هذا الإشفاق البغيض الذى لا يستطيع أن يكون أمنا ولا يبلغ أن يكون خوفًا صريحًا، وإنما هو قلق خفى ماكر يفسد من حوله كل شىء؟! ونحن نريد أن نقاوم بنات الليل هذه فتغمض أبصارنا حتى لا نراها ونسد آذاننا حتى لا نحس قربها منا! والجمالان يسعيان فى جد ونشاط لا يكاد يأخذ منهما الفتور. ثم يرتفع صوت خالنا غليظًا مخيفًا، كله شر وكله نكر وكله نذير: هنا يجب أن ننزل وما هى إلا أن يناخ الجمالان ولم تستطع واحدة منا أن تقول حرفًا أو أن تنطق بكلمة أو أن تفكر فى شىء وإنما هو ذهول غريب كثيف قد أطبق علينا وملاً نفوسنا كما أطبقت علينا وملأت نفوسنا ظلمة الليل، وهذا خالنا قائم كالشيطان، وهو يأمرنا فى غلظة وعنف أن ننزل فلن يمضى الجمالان أمامها قيد أصبع.

وها نحن أولاء ننزل مضطربات، ونسعى متعثرات، وهذه أمنا تريد أن تسأل فىم إناخة الجمالين، وفىم النزول فى غير منزل، ها أنا هذه أريد أن أقول شيئًا ولكنى لا أكاد أدير لسانى فى فىمى، ولا أكاد أستوعب ما كانت أمنا تقول؛ إنما هى صيحة منكرة مروعة تنبعث فى الجو جسم ثقيل متهالك يسقط على الأرض، وإذا أختى قد صرعت وإذا خالنا هو الذى صرعه لأنه أغمد خنجره فى صدرها، ونحن عاكفتان على هذا الجسم الصريع يضطرب ويتخبط ويتفجر منه الدم فى قوة كما يتفجر الماء من الينبوع، ونحن عاكفتان فى ذهول وغفلة وبله، لم نفهم شيئًا ولم نقد شيئًا ولم ننتظر شيئًا، وإنما أخذنا على غرة أخذًا واختطفت هنادى من بيننا اختطافًا، وجسمها يضطرب ويتخبط ودمها يتفجر ولسانها يضطرب ببعض الحديث فى فىمها، ثم يهدأ الجسم المضطرب، ويسكن اللسان المتحرك، ويخف تفجر الدم، ويمتلئ الجو حولنا بهذا السكون الأليم سكون الموت، ونحن فيما نحن فيه من ذهول وغفلة وبله، وخالنا قائم أمامنا كالشيطان إلا أنه قد أخذه الذهول كما أخذنا..

وهذا نداؤك أيها الطائر العزيز يبلغنى من بعيد، هذا صوتك يدنو إلى قليلا قليلا، وهذا غناؤك ينتشر فى الجو كأنه النور المشرق قد أظهر لنا ما كان يغمرنا من الهول دون أن نراه، وها أنت ذا تبعث صيحاتك يتلو بعضها بعضاً، كأنما هى سهام من نور قد تلاحقت مسرعة فى هذه الظلمة فطردت عن نفسى ذهولها وجلت عنها غفلتها وأيقظتها من هذا البله، وجلت لها الجريمة منكرة بشعة، والمجرم أثماً بغيضاً، والضحية صريخة مزرجة بالدماء...

إن صوتك لم يوقظنى وحدى وإنما أيقظ أماناً فيها هى هذه تفيق وها هى هذه تسأل أباها: أو فعلتها يا ناصر؟! وها هى هذه تغرق فى بكائها السخيف بكاء الأنثى المستسلمة التى لا تملك حولا ولا طولا إلا سفح الدموع، ويلك أيتها البائسة! إنك لتستطيعين أن تسفحى دمعى إلى آخر الدهر فلن تغسلى قطرة من هذا الدم الذكى، ويلك أيتها الأم الأثمة! إنك لن تستطيعى أن تردى نفسك إلى البراءة والأمن.

نعم! إن صوتك أيها الطائر العزيز قد أيقظنى وأيقظ هذه الأم المجرمة التى سفكت دم ابنتها بيد أخيها، وأيقظ هذا المجرم فنبه إلى أن جريمته يجب أن تخفى وإلى أن آثار إثمه يجب أن تزول، ولكنه لم يوقظ هنادى وما كان ينبغى له أن يوقظها لأن صوتك مهما يقو ومهما يلح فلن يستطيع أن ينفذ من أستار الموت، إنك لترسل صيحاتك متصلة متلاحقة وإنى لأنشط مثلك للصياح، وإن صوتينا لميلان الفضاء العريض من حولنا، ولكنهما لا يصرفان هذه المرأة عن بكائها السخيف، ولكنهما لا يصرفان هذا الرجل عما هو مقبل عليه من إخفاء هذا الجسم فى هذه الحفرة التى لم يفارقنا آخر النهار إلا ليهيئها.

لقد تمت الجريمة وبلغ الكتاب أجله، واستنفدت هنادى حظها من الحياة، وماتت لأن شاباً أثماً أغواها لأنها لم تحسن أن تدفع عن نفسها غوايته.

إن صوتك لينبعث فى الفضاء مستغيثاً وليس من يغيث، وإن صوتى لينبعث فى الفضاء داعياً وليس من يجيب، وإن هذا الرجل المجرم ليفرغ من إخفاء جريمته ومحو آثارها ثم يلتفت إلى هذه المرأة وإلى ويقول فى صوت متهدج فيه الرعب وفيه الخوف وفيه النذير: هلم فقد أن أن نترحل، فإذا أبطانا عليه ردد هذه الكلمات فى صوت أشد ترويعاً وأكثر امتلاء بالنذير ثم يمثل أمامنا ويقول:

تعلمان والله أن هنادى ذهبت مع من ذهب من أهل المدينة بهذا الوباء الذى ألم بها منذ

أسابيع!

أما أنا فقد انقطع عني صوتك أيها الطائر العزيز قليلا قليلا، وانقطع عني صوت خالي،  
ثم انقطعت عني الأشياء كلها أو انسلت من الأشياء كلها، وإنى لأراني أمرض في بيت خشن  
حقير.

obeyikahna.com

متى بلغت هذا البيت؟ وكيف بلغت وأى طريق سلكت إليه؟ وكم من يوم أو كم من أسبوع لبثت فيه؟ وكم من يوم أو من أسبوع احتملت أثقال هذا المرض الذى أخذت غمراته تتجلى عنى لحظات فى كل يوم ثم لا تلبث أن تتابع وتتراكم ويركب بعضها بعضًا وتأخذنى من كل وجه فأجهل نفسى وأجهل من حولى: كل شىء وكل إنسان، ولا أحسن ولا أرى حين أغرق فيها وحين أخرج منها إلا هذه الصورة المنكرة البشعة التى لا أذكرها الآن ولم أذكرها قط إلا جرت فى جسمى رعدة عنيفة مؤلمة وأخذ نفسى اضطراب لا حد له؟

أسئلة أقيتها على نفسى ألف مرة ومرة، وسأقيها على نفسى ألف مرة ومرة، فلم أظفر ولن أظفر بها بجواب، وإنما أذكر صوتك أيها الطائر العزيز وهو ينحف فى أذنى، ويفنى قليلا قليلا كأنه صوت المودع يبلغ المسافر والقطار يبعد به عنه شيئاً فشيئاً، إنما أذكر ذلك الصوت البشع المجرم صوت خالنا الأثم وهو يتهدج ويبعد عنى شيئاً فشيئاً فى ثقل وبغض واشمئزاز.

إنما أرى قطعة من الليل تسعى إلى سعيًا هادئًا أول الأمر ولكنها تسرع شيئاً فشيئاً، وهذه الظلمات تتكاثف من حولى كأنها الأمواج العظام، وهذه الأصوات تنقطع وتبعد، وهأنا هذه يغمرنى الموج وأدخل فى الليل فلا أحس شيئاً ولا أرى شيئاً ولا أشعر بشىء، يا له من نوم عميق طويل! إن الأحلام قد ألحت عليه، فهى تروعنى فيه ترويعًا متصلًا ليس إلى انقطاعه من سبيل.

أكنت نائمة؟ أكنت مستيقظة؟ أكنت مريضة؟ أكنت صحيحة؟ أكنت عاقلة؟ أكنت ذاهلة؟ لا أدرى، إنما أعلم أنى كنت شاعرة شعورًا غامضًا ولكنه قوى ملح كأنى قد أقمت إلى ينبوع يتفجر أمامى من الأرض فى مكان رحب، بعيد الآفاق لا يقوم فيه شىء ولا تقع العين فيه إلا على هذا ينبوع وعلى ظل مقيم عنده لا يريم، وعلى ظلال أخرى تجىء كأنما أقبلت تزور هذا الظل، فهى تلم به حينًا وكأنما تتاجيه وكأنه يسمع منها وكأنه يرد عليها، وكأنى أسمع نجوى هذه الظلال ولكنى لا أحقق ما أسمع، وكأنى أفهم نجوى هذه الظلال ولكنى لا أتبين ما أفهم.. وأنا جامدة هامة لا أحس ولا أرى إلا هذا ينبوع الذى يتفجر فى غير انقطاع، وهذا الظل الذى لا يتحول عنه وهذه الظلال التى تغشاه بين حين وحين. يا له من ينبوع كرىه أود لو أحول عيني عنه، ولكن حمرة تجذب عيني إليه اجتذابًا! إنه لينبوع غزير، ولكنه لا يتفجر منه الماء وإنما تتفجر منه الدماء يا له من ظل حزين كئيب شاحب مسرف فى الشحوب أحاول أن أغمض عيني وأن أعلق نفسى فلا أحس له محضراً، ولكن شحوبه يستهوى نفسى ولكن حزنه يمزق قلبى ولكن انحناءه على هذا ينبوع يملونى لوعة وروعة وابتئاسًا! يا لها من ظلال تذهب وتجىء هادئة لا تكاد تشعر ولكن فى حركاتها ما يملأ النفس جزعًا وهلعًا! ما لى لا أثبت عيني فى هذا

الظل المقيم، وما لى لا أثبت عيني فى هذه الظلال المضطربة التى تذهب وتجيء؟ أنائمة أنا أم مستيقظة؟ أعاقلة أنا أم ذاهلة؟ ألسأ أتبين فى هذا الظل المقيم ملامح أختى فما لها إذن لا تكلمنى.. وما لها إذن لا تدعونى.. وما لها إذن لا تتاجينى؟ لقد عرفتها محبة لى واثقة بى مطمئنة إالى، فما لها لا تظهر ليس شيئاً من هذا الحب، ولا تبدى لى شيئاً من هذه الثقة، ولا تبين لى عن شىء من هذا الاطمئنان؟ إنما هى مكبة على هذا الينبوع تنظر فيه كما تنظر الفتاة الجميلة فى المرأة، عم تبحث فى هذا الينبوع؟ أتراها تلتمس صورتها فى هذا الدم المتدفق؟ وما لها لا تكلمنى، ألسأ ترانى؟ ما لها لا تجيبنى، ألسأ تسمعنى؟ ما لها لا تروق لى ولا تعطف على؟ ألسأ تسمع هذا النداء الذى ينبعث من فمى باسمها فى صيحات قوية عنيفة متلاحقة؟! إبنى لأسمع هذه الصيحات ولكنى لا أرى من أختى أنها تسمعها، وكأن هذه الصيحات تخيفها وترعجها! فهذا ظلها يستخفى وتستخفى معه الظلال الأخرى، ويستخفى معها الينبوع الأحمر، وهؤلاء أشخاص آخرون يسرعون إالى ويدنون منى ويستجيبون لى، فلا أكاد أنظر إاليهم حتى أتبينهم، ثم أخافهم، ثم أبغضهم، ثم أتقى محضرم بالصمت والهدوء.. إنهم أهل الدار قد سمعوا صياحى فأقبلوا يرفقون بى ويسألوننى عما أجد.

إنهم أهل الدار وما أشد بغضى لأهل الدار، إبنى لأرى بينهم أمى وإبنى لأكره أن أرى أمى، كلا! لأكف عن هذا الصياح لعل أهل الدار أن ينصرفوا عنى فيجنبونى محضرم الكرىه؛ إبنى لأخذ نفسى بالصمت وأكره نفسى على الهدوء، وما هى إلا لحظات صامئة هادئة حتى يسدل ستار ويرفع ستار، هذا الينبوع الأحمر يتفجر من الأرض قوياً غزيراً، وهذا ظل أختى ماكثاً لا يريم، وهذه الظلال تذهب من حوله وتجيء إبنى لى بهذه الظلال لعهداً، لقد رأيتها ولقد سمعت عنا حديثاً، لقد حدثتتى عنها أختى فى تلك الليلة التى قضيناها مروعتين حين أقبل خالنا يدعونا إالى سفرة الأثم.

نعم إبنى لى بهذه الظلال الحمراء ظلال مرثا وأمينة وملزمة تلك التى كانت تتراءى لنا فتملاً قلب أختى فرقاً وهلعاً وروعاً... إبنى لى بهذه الظلال لعهداً وإبنى لأعرفها إبنى لأفهم الآن إالحاحها بالزيارة على هذا الظل المقيم. لقد أقبلت تحييه وتواسيه وتبثه ما وجدت من ألم وحزن، وتسمع منه ما وجد من شقاء وبؤس، إبنى نجوى الظلال الغربىة... لىتنى استطعت أن أفهمها، لىتنى استطعت أن أستحيل ظلاً فأفهم حديث الظلال! ما بال أختى لا تتاجينى، أتراها لا تحس محضرى، أم تراها لا تعرف كيف تتحدث إبنى أو تفهم عنى؟ ألتغير لغة الناس إذا ماتوا؟! لقد حدثونا أن للموتى حديثاً يلقونه إالى الأحياء فيفهمه عنهم الأحياء..

إبنى لأعرف هذه الظلال. لقد كنت فى ظلال إذن حين كنت أزعم لأختى فى بعض الطريق أن الأشباح بنات الليل، وأنها تكره ضوء النهار ولا تستطيع أن تظهر فيه؛ والظلال ملحة

فى المثلول أمامى لا يصرفها عنى مطلع النهار ولا يصرفها عنى مقدم الليل، إن الظلال إن لا تهاب نورًا ولا تألف الظلمة، ولعلها لا تعرف نورًا ولا ظلمة وإنما نحن يغشينا ضوء النهار فلا نرى الظلال التى تحيط بنا وتضطرب من حولنا وترى كل ما نأتى وتسمع كل ما نقول، ولعلها تثرى لنا، ولعلها تسخر منا، ولعلها لا تفهم عنا شيئًا كما أننا لا نفهم عنها شيئًا، يا للهول إن تدفق الينبوع ليشدد، وإن الدم لينتشر من حوله انتشارًا، وإن الحمرة لتصبغ كل شيء من حولي، وإن هذه الظلال لتدنو منى كأنها قد عرفتنى وكأنها تريد أن تقبلنى! يا للهول، إن الورع ليملأ قلبى، وإن الصياح ليتفجر من فمى فيملأ الجو من حولى كما ينفجر الدم من الينبوع فيصبغ الأرض بجمرتة، وإن أهل الدار ليقبلون على، منهم الجزع، ومنهم المطمئن، وهم يرفقون بى ويعطفون على..!

وهذه أمى، ويا للهول! ما أسمح هذا الوجه وما أقبح هذه الصورة ما أشد بغضى لهذا المحضر! إنها لتدنو منى وإن الدم ليجمد فى عروقى لمقدمها، إنها لتضع على رأسى خرقة مبللة وإنى لأجد لبرد الماء شيئًا من الراحة ولكن لينصرف عنى هذا الوجه فإنى أكره أن أراه لترد عنى هذه المرأة فإنى لأخشى أن تقتلنى.. وكيف أخلص منها وكيف آمن محضرها إلا إذا أويت إلى الصمت ولجأت إلى الهدوء؟ إنه لعذاب أليم هذه الحياة بين الينبوع الأحمر والظلال المطيفة به إن آثرت الهدوء وبين أهل الدار وهذه المرأة البغيضة إن آثرت الصياح، أليس لى سبيل إلى الراحة من هذا العناء؟ ما أكثر ما طلبت وألححت فى طلبها، وما أكثر ما فرت منى وامتنعت على، وما أكثر ما خيل إلى أنى أجرى فى أثر شيء أتمناه أشد التمنى وأحرص عليه أعظم الحرص وأجد فى طلبه كل الجد، حتى إذا بلغته أو كدت أبلغه كانت منه وثبه فإذا المسافة بينى وبينه وساعة وإذا الأمد بينه وبينى بعيد، وإذا أنا معذبة أشد العذاب بالاضطراب الملح المضنى بين وجوه أهل الدار التى أكرهها، وهذه الظلال التى يؤذنينى منظرها ويثير فى نفسى ألمًا لا آخر له..

ولكننى أستقبل النهار ذات يوم هادئة النفس مستريحة الجسم، قد ألح الضعف على فما أكاد أتحرك. على أنى أجد فى هذا الضعف نفسه دعة وأمنًا فاستعذبه وأستلذه وأستسلم له استسلامًا، وأجد فى نفسى دهشا لذيذًا لعلوا لأنى أفتقد شيئًا كنت أخاف أن أجد؛ أفتقده افتقاد السعيد بالنجاة من شر يخشاه، فقد يخيل إلى أن قد بعد العهد بينى وبين الظلال والينبوع ووجوه أهل الدار، وأنى قد قضيت وقتًا غير قصير لم أر حمرة الينبوع ولم أشهد اضطراب الظلال ولم يرتفع صوتى بالصياح ولم يسرع إلى أهل الدار. ثم لا أكاد أتمثل هذا كله حتى أجتهد ما استطعت فى أن أدود هذه الخواطر عن نفسى مخافة أن يطول تفكيرى فيها فيكون ذلك استحضارًا لما أتمثله من الهول، ودعاءً لما أجد من السعادة فى الإفلات منه، ورفعًا للستار عن

الينبوع الذى منه يتفجر الدم والذى تطيف به الظلال، فأنا أذود هذه الخواطر عن نفسى، وأستسلم لهذا الضعف الذى أجده، وأود لو بقيت كما أنا هامة خامدة لا أقدر على شىء حتى على التفكير، ولكن هذه هى أمى تدنو منى وعلى وجهها الكئيب شىء من آيات الرضا، وهى تقول لى فى هذا الصوت الذى يخيل إلى أنى لم أسمع منذ زمن بعيد: لقد نمت الليلة كلها يا أمانة، فأنت بارئة، وما أرى إلا أنك ستسرعين نحو الشفاء، ليتهى لم تقبل على، وليتهى لم تدن منى، وليتهى لم تتحدث إلى! فقد اقشعر لقرتها بدانى كله؛ واضطربت نفسى كلها، وأخذت غشاوة غريبة تلقى على عيني وأخذت الأشياء تضطرب من حولى اضطراباً وآذانى هذا كله أشد الإيذاء حتى كدت أصبح لولا أنى حبست صيحتى فى حلقى ولكن لم أستطيع أن أمسك يدي وأن أمنعهما من أن ترتفعا إلى عيني لتردا عنهما منظر هذه الأشياء الراقصة، وظنت الأم البائسة أنى أتقيها فلوت باكية، ووجدت فى انصرافها عن سروراً وراحة ورضاً.

ولا بد مما ليس منه بد، فلم يكن سبيل إلى أن تمتع أمى عن عيادتى والعناية بى، ولم يكن سبيل إلى أن أرفض لقاءها وأخلص من محضرها ولم يكن بد من أن تنتظر إلى وأنظر إليها ومن أن تتحدث إلى وأسمع منها وأرد عليها رجع الحديث؛ ولم يكن ذلك دون أن يثير فى نفسى من الموجدة والغيط ما كان يردنى أحياناً إلى بعض ما كنت فيه، ولم يكن ذلك دون أن يثير فى نفس هذه المرأة البائسة آلاماً إلى آلام وشفاءً إلى شفاء فترسل عبراتها حيناً وتتهادتها حيناً آخر، وبما أثار فى نفسها غصباً تجتهد فى حسبه أن ينفجر، وأنا أدنو إلى البرء وأستزيد من القوة وأسترد النشاط قليلاً قليلاً وأتى بعض الحركات اليسيرة فأجلس وقد كنت لا أستطيع الانتقال، ثم تثوب الحياة إلى فى قوة كأنما كان بينها وبينى سد، فلما أزيل أخذت تغمرنى من كل وجه، وإذا أنا أنهض وأسعى، وإذا أنا أسترد حظاً من القوة غير قليل وأجد رغبة فى كل شىء إلا فى الحديث وأمى تدور حولى وتتلف لى وتغلو فى العناية بى، وتود لو تجد إلى نفسى سبيلاً، وتتفق جهوداً مثيرة للثناء تريد بها أن تصل أسباب الحديث بينها وبينى، ولكنها لا تصل مما تريد إلى شىء، وقد ألقى بين نفسها ونفسى سور صفيق فهما لا تلتقيان، ومع ذلك فإن خاطرًا من الخواطر كان يتردد فى نفسى تردداً لا يكاد ينقطع وكنت أدافعه دفاعاً متصلاً لأنى كنت أجد فى اضطراب نفسى به ألمًا فيه الخوف والرعب وفيه البغض والحقد فقد كنت أسأل نفسى وأريد أن أسأل أمى أو أن أسأل بعض من حولى عن خالنا ذلك الشيطان الآثم المرید أين هو وأين استقرت به الدار؟ فما أذكر أن صورته البغيضة تمثلت لى فيما كان يتمثل لى من الصور أثناء العلة، وما أذكر أنى سمعت له ذكرًا أو عرفت من أمره خبرًا منذ أخذ البرء يسعى إلى ويدب فى أعضائى وما أذكر أن أحدًا من أهل الدار قد أشار إليه أو ألم بالحديث عنه منذ أخذت أخالط أهل الدار وأشترك معهم فى بعض شؤون الحياة، وكنت مع ذلك أريد أن أعرف من أمره بعض

الشيء، أو أكره أن أعرف من أمره بعض الشيء، أحي هو أم ميت؟ أفقلت بجريته أم أخذه السلطان؟ أمقيم هو فى القرية أم ذهب فى الأرض يلتمس مأمنه بعد الإثم وراء هضبة من هذه الهضاب؟

ما أكثر ما ترددت فى نفسى هذه الأسئلة وما أكثر ما جاش بها صدرى وما أكثر ما هم لسانى أن ينطق بها، ولكنى كنت أحبسها فى ضميرى حبسًا خوفًا منها وبغضًا لهذا الرجل الأثيم، على أنى لم أستطيع ذات صباح أن أملك من أمرى ما تعودت أن أملكه فسألت أمى وقد خلوت إليها، سألتها وأنا أكاد ألوى وجهى عنها: أين هو؟ وما أسرع ما فهمت عنى، وما أسرع ما أجابتنى وهى تشير إلى بالصمت: لقد ذهب إلى الواحات فيمن ذهب. قالت ذلك وانهمرت دموعها غزيرة سخينة، ولكن بكاءها لم يدع بكائى وحزنها لم يثير حزنى فقد كان بين نفسها وبينى سور صفيق. لقد ذهب إلى الواحات فيمن ذهب.. فلم يأخذه السلطان إذن ولم يهرب ملتسًا مأمنه وراء هضبة من هذه الهضاب، وإنما ذهب إلى الواحات فيمن ذهب من أهل القرية ومن أهل القرى المجاورة يحملون إلى أهلها ثمرات الريف ويحملون إلى أهل الريف ثمرات الواحات، لقد ذهب إلى الواحات فيمن ذهب وكانت نفسه هادئة وكان ضميره مطمئنًا، وكان قد نسى إثمه نسيانًا وكان قد انجلى عنه هذا الذهول الذى غشيه بعد أن سوى الأرض على ضحيته.

ولم تتمثل له هذه الصور المروعة التى تتمثل لى، ولم تنهكه هذه الحمى التى أنهكتنى، وإنما ذهب إلى الواحات فيمن ذهب يبيع ويشترى، ويتحدث مع رفاقه إذا تحدثوا، ويلهو مع رفاقه إذا لهوا، كأنه لم يأت شيئًا ولم يقتترف إثمًا ولم يسفك دم ابنة أخته بيده..

ذهب إلى الواحات فيمن ذهب، وسيعود من الواحات فيمن يعود، يحمل وجهه البغيض ونفسه المجرمة وضميره الآثم، ويحمل مع هذا كله تجارة قد ترضيه وقد ترتضى أهل هذه الدار، وسيلقونه مغتربين بلقائه، وسيلقاهم سعيدًا بالعودة إليهم لا يحس ألمًا ولا ندمًا، وسيرتفع صياح الفرخ لمقدمه فى هذه الدار، وسيرتفع صياح الفرخ فى القرية كلها لمقدم العائدين معه من أهل القرية، وسيقضى الناس هنا أيامًا كلها أعياد يملؤها السرور والحبور، أما أنت أيتها الأخت التعسة البائسة فلن يذكرك فى هذه الدار أحد إلا هذه المرأة التى لا تستطيع أن تذكرك إلا سرًا بينها وبين نفسها، وإلا هذه الفتاة التى لا تكاد تفكر فيك حتى يتراءى لها الينبوع الأحمر والظلال المطيفة به فى ذلك الفضاء العريض فتشفق من الجنون!..

ذهب إلى الواحات فيمن ذهب وسيعود من الواحات فيمن يعود.. حرام على أن أراه، وحرام على أن أشهد ما سيثير مقدمه من الفرخ والابتهاج. إنى لعاجزة عن لقائه، وإنى لخليفة إن

لقيته أن أفصح من أمره ومن أمرنا ما يريد أن يكون سرًا، أليست هنادى قد ذهبت مع من ذهب  
من أهل المدينة بذلك الوباء!؟

وأشرقت الشمس ذات يوم على أهل الدار وارتفع الضحى، وافتقد أهل الدار آمنة فلم  
يجدوها، ولو أنهم افتقدوها فى القرية كلها لما وجدوها فقد كانت آمنة فى بعض الطريق قد عبرت  
البحر مصوبة نحو الشرق..

وإني لأراها فى طريقها نحو الشرق فيمتلئ قلبى رحمة لها وإعجاباً بها وخوفاً عليها، وأى قلب لا يرحم فتاة غرة لم تكد تتجاوز سن الصبا وقد قذفت بها الأحداث فى لجة الحياة الممتلئة بالخطوب والأهوال، وهى وحيدة ليس لها عون، قد صفرت يدها من كل شىء، فرغ قلبها إلا من الحزن اللاذع الذى يفعمه إفعاماً وعجزت نفسها حتى عن الأمل فهى قد فرت من بيت أسرتها فراراً لا تريد شيئاً إلا أن تخلص من هذه البيئة التى لم تكن تستطيع فيها مقاماً، وتقلت من هذا الشيطان المرید الذى كانت توشك أن تلقاه إن أقامت أياماً.

وأى قلب لا يعجب بهذه الفتاة الغرة التى لم تكد تتجاوز الصبا، والتى فرت من أهلها فهى تسعى لا تلتوى على شىء نحيلة هزيلة، بأئسة كئيبة لا تدرى أين ينتهى بها المسير، ولا تعرف كيف يتاح لها القوت، بل لا تفكر فى شىء من هذا، وإنما تمضى أمامها مسرعة فى المضى يدفعها عزم لا يعرف الكلال، وبغض للشر لا هوادة فيه، وثقة بالعدل لا حد لها.

وأى قلب لا يخاف على فتاة غرة لم تتجاوز الصبا تسعى وحدها فى الطريق العامة إلى غير غاية، وقد صاحبها الفقر والحاجة والضعف وحداثة السن وشىء من جمال يغرى بها كل غوى، ويطمع فيها كل مفسد، وما أكثر الغواة والمفسدين فى هذه الطريق العامة التى تستقيم وتلتوى بين قرى الريف!

لك الله أيتها الفتاة الناشئة! إلى أين تذهبين! ألم تفكرى فى هذه الكوارث والخطوب التى تضمورها الحياة للضعفاء والبائسين، وللضعيفات والبائسات خاصة، وتتكشف عنها شيئاً فشيئاً فإذا هى مصدر خصب للشر والضر، وينبوع غزير للسيئات والآثام؟ ألم تفكرى فى هذه الأفاصيص التى كان يمتلئ بها صباك والتى كانت تسلى نهارك وتروع ليلك،، والتى كانت تمتلئ بأحاديث الأغوال وقد تفرقوا على الطريق يعترضون المار حين يمر بهم وقد انقطعت به السبيل فإذا هم يضمرون له الهول كل الهول، ويسرون له البغض كل البغض، وإذا هم لا يكادون يتنسمون ريحه وقد أقبل من بعيد حتى يتحلب ريقهم قرماً إلى لحمه وعظمه، وحتى تضطرم فى أجوافهم غلة لا يرووها إلا دمه، وهو يبلغهم خائفاً وجلا قد ملأ الجزع قلبه وفرق الهلع نفسه، فإن كان قد حفظ الوصية ووعى النصيحة واستعد للقاء الغول ابترده بالسلام فقلم أظفاره واضطره إلى السلم والموادعة، وإن لم يكن قد حفظ ولا وعى ولا هياً نفسه للقاء الخطوب مر بالغول فالتقمه التقاماً والتهمه التهاماً، وقطع الوسائل بينه وبين من ترك وراءه ومن كان يمضى للقائم أمامه..؟

ماذا أعدت يا آمنة لهؤلاء الأغوال فإنهم منبثون فى الطريق؟ ليسوا سعة كما كانت تتحدث إليك القصص ولكنهم سبعون، بل أكثر من سبعين، بل مئة، بل مئات قد انتثروا فى

الطريق، منهم من جلس ينتظر الفريسة ومنهم من مضى يبتغيها، منهم من برز ضاحياً ومنه من استخفى فى الحقول واختبأ فى المزارع، منهم من يظهر مظهر الغول كريهاً مخيفاً لا يكاد تبلغه العين حتى يمتلئ القلب منه فرقاً وحتى تندفع الغريزة إلى اتقائه ومحاولة اجتنابه والخلص به، ومنهم من يظهر مظهر الرجل الوديع أو الشاب الرفيق تبلغه العين فيطمئن إليه القلب، وتأنس إليه النفس بعد وحشتها، ثم لا يجد منه اللجوء إليه إلا غدرًا ولا يظفر عنده الوثائق به إلا بالشر والنكر والبوار، منهم من اتخذ زى الرجل ومنهم من اتخذ زى المرأة، وكلهم غول قد هيأته الأحداث لأمثالك من الفتيات الضعيفات البائسات اللاتي نبذتهن الأسرة أو اجتنتهن الخطوب من أصولهن فهن مشردات يستقبلن الحياة جاهلات بها غافلات عنها، والحياة تلعب بهن، تقذفهن من مكان إلى مكان، وتتقلهن من شر إلى شر، حتى ينتهى بهن القضاء إلى الغول الظاهر أو إلى الغول الممتكر، فإذا هن فريسة لهذا أو لذاك، يلقين العار والخزى، ويلقين البؤس والضيم، ويلقين المرض والشقاء، ويلقين الألم دائماً، وقد يلقين الموت أحياناً..!؟

لم تفكر آمنة فى شىء من هذا حين انطلقت مع الصباح من بيت أسرتها كما ينطلق السهم ومضت أمامها مندفعة لا تحس جهداً ولا مشقة؛ بل لا تحس حركة ولا نشاطاً، بل لا تشعر بأنها تمضى كما يمضى السهم لأنها لم تكن تفكر إلا فى سجن قد أفلتت منه وهى تريد أن تبعد عنه، وفى حرية قد دفعت إليها وهى تريد أن تتغمس فيها انغماساً.

فهى تمضى وتمضى لا تقف ولا تفت عن يمين ولا شمال ولا تلتفت إلى وراء كأنها بطل من أبطال هذه القصص التى تتحدث بها الجدات والأمهات، قد مضى لغايته ووعى نصيحة الناصح، فهو لا يلتفت مخافة أن يدركه البوار إن حول وجهه عن طريقه المستقيمة أمامه، والفتاة تسعى مسرعة تستقبل بوجهها المشرق الكئيب وجسمها الضئيل النشيط ضوء الشمس ونسيم الصباح واستيقاظ الحياة والأحياء، وما تزال كذلك حتى يغمرها الضحى وحتى تغمرها الحياة التى تشطت من حولها، وإنما هى مضطرة بحكم الغريزة وبحكم هذا الإعياء الذى أخذ يدرك جسمها الضيف شيئاً فشيئاً إلى أن تمضى مبطئة وتسعى هوثناً، ولا يكاد ينتصف النهار حتى تبلغ البحر وحتى تعبره، ولا يكاد يتقدم النهار نحو العصر حتى تكون قد بلغت مأمنها وأفلتت من طلب الطالبين وانتهت إلى قرية من القرى فمالت إليها تريد أن تبلغ عند أهلها حظاً من راحة و شيئاً من طعام وأن تتفق عندهم الليل.

نعم إنى لأرانى فى هذه الطريق وحيدة شريدة لا أملك إلا نفسى الضعيفة البائسة، وإلا جسمى النحيل الضئيل، وإلا ثياباً بالية أو كالبالية، وأنا مع ذلك لا أحفل بما تركت ولا بمن تركت، ولا أسأل عما أنا مقدمة عليه من الأمر، ولا عمن أنا مقبلة عليهم من الناس، إنما هو الهيام فى الأرض والسكر بهذا الشراب الخطر الذى نسميه حب الحرية والذى يكلفنا أحياناً من

أمرنا شططاً. أكنت خائفة..؟ أكنت آمنة..؟ لا أدري! وإنما كنت أشعر بالأمرين جميعاً يتعاقبان على قلبي كما يتعاقب الليل والنهار على الأرض وما عليها.

كنت أطمئن إلى أنى لن أرى أمى ولن أسمع صوتها، ولن أرى أهل الدار وأشاركهم فى شىء، ولن ألقى ذلك الرجل المجرم ذا النفس الفاجرة والقلب الغليظ، ولن أخضع لغلظته ولن أحتمل تقربه إلى وترضيته لى، فيمتلئ قلبي أمناً وهدوءاً وتبسم لى الحياة عن أجمل الصور وأحفها بالأمانى والآمال، وأجد فى ذلك قوة وشجاعة وصبراً فأمضى لا يدركنى الإعياء ولا ينالنى الكلال، ثم كنت أذكر أختى ولا سيما بعد أن عبرت البحر وأخذت الطريق تختلط على، وأخذت أحاول أن أعرف أين انحرف بنا خالنا المجرم عن الجادة إلى ذلك الفضاء العريض الذى اقترف إثمه فيه.

كنت أذكر أختى فما أكاد أثير ذكرها حتى يثور ظلها أمامى وإذا أنا أراها ماثلة ذاهلة كما تعودت أن أراها منذ تركنا المدينة، وإذا أنا أهم أن أسعى إليها وأن أمسها بيدي وأن آخذ معها فى الحديث، وإذا أنا أتنبه للخطب وأتبين الحقيقة الواقعة، وإذا ينابيع الحزن تتفجر فى قلبي وإذا الحزن يجرى مع دمي، وإذا جسمى كله نار مضطربة ولوعة محرقة، وإذا دموى تنهمر على خدى، وإذا أنا مضطرة إلى أن أنتبذ ناحية من الطريق لأبكى على مهل على غير مرأى من الناس.

ثم أنهض مستأنفة للسعى، وإذا أختى تسيرنى وإذ الظلال التى كنت أراها أثناء العلة تطيف بها وتطيف بى، وإذا ظلال أخرى تملأ الفضاء من حولى ولا أدري أنجمت من الأرض أم هبطت من السماء ولكنى أراها تكثر وتختلط وأسمعها من حولى تصخب وتلغظ حتى أخاف على نفسى الجنون.

أنا على ذلك كله ماضية تتقاذبنى القرى وتتدافعنى الضياع، أستضيف هؤلاء حيناً وأسأل هؤلاء حيناً آخر، أعمل فى الحقول مرة وأعمل فى البيوت مرة أخرى، وهذا اللونان من الشعور يختلفان على قلبي ويتعاقبان على نفسى لا يمهلاننى فى اليقظة ولا يعفیاننى فى النوم، أنا مضطربة دائماً بين أهلى الذين فررت منهم فراراً، وبين أختى وصاحباتها اللاتي يستجبن لى كلما ذكرتهن كأنما يسمعن دعاء فيسرعن إلى الداعي. وأنا ماضية أمامى أتقدم نحو الشرق من يوم إلى يوم ولى من غير شك غاية أعرفها وأسعى إليها، ولكنى لا أكاد أتمثلها ولا أستحضرها وإنما أنا أطلبها غير شاعرة بها كأنما تدفعنى إليها الغريزة دفعاً.

أنا ماضية نحو الشرق، لا أنحرف عن غايتى إلى يمين أو إلى شمال إلا لأقضى ليلة فى هذه القرية أو لأستريح ساعات أو لأستريح يوماً فى هذه القرية أو تلك، ولكنى على جناح

سفر دائماً، متجهة نحو الشرق دائماً، وفي الشعور بالأمن كلما ازدادت من الغاية دنواً ومن المدينة قريباً، فالمدينة إذن هي غايتي من كل هذا السعي، فيها ألتمس الأمن وبين أهلها ألتمس الحياة الوادعة! وبيت المأمور هو غايتي من المدينة إليه ألتجأ وإلى من فيه أفزع وبمن فيه أستعين، وفي ظله أريد أن أعيش، عند أهله أريد أن أودع قلبي، وعند خديجة من أهله خاصة أريد أن ألتمس الراحة لهذه النفس المعذبة، والشفاء لهذا القلب المريض لن آمن حتى أبلغ هذه الدار ولن أبل من علتى حتى أرى هذه الوجوه وأسمع هذه الأصوات، وأستأنف حياتي مع الخدم والسادة كعهدها منذ أشهر قبل أن تأمرنا أننا بذلك الرحيل المشؤم، إذا بلغت هذه الدار فستقصر يد خالي دون أن تبلغني وإذا اطمأن بي المقام في هذه الدار فلم يجد الروح إلى نفسي سبيلاً ولكن ما خطب أهل الدار وما خطبى إن سألوني أين كيف؟ كيف أجيبهم؟.. وبم أجيبهم؟ أقص عليهم حديثي كله أم أطويه عنهم طيماً؟ بل ما خطب أهل الدار وما خطبى إن رأوني فأنكروني فم أبوا أن يفتحوا لي بابهم وأن يلقوني بما أحب أن يلقوني به من الرضا والعطف والابتسام؟ ما خطب خديجة وما خطبى إن رأنتي فأعرضت عني لأنها وجدت من فتيات الريف أو من فتيات المدينة من يقوم منها مقامى ويلهيهما كما كنت ألهيهما، ويشاركها في الجد واللعب كما كنت أشاركها في الجد واللعب؟ أين أذهب إذا نبت بي هذه الدار، وإلى من ألتجأ وعلى من أعول إذا تنكر لي أهل هذه الدار؟

كلا! بل هذه الدار كما عرفتُها رشيقة أنيقة، مغرية مطمعة، لا ترد طارقاً ولا تصدر راغباً، ولا تتجهم لزائر ولا تنبو بضيف، وإنى لأراها من بعيد فأسرع إليها الخطوة كأنما أدفع إليها دفعاً أو كأنما تدعوني ملحة فأستجيب للدعاء. وإنى لأرى دخاناً يصدر عنها وينشر في الجو فلا أتمثل النار التي يصدر عنها في المطبخ وإنما أتمثل الطباخ ومن حوله من الخدم يذهبون ويجيبون وأسمع ما يقولون، وكأني أشاركهم فيما يأتون من حركة، وأجاذبهم ما يلفظون به من حديث، وإنى لأدنو من الدار فأرى نافذة مفتوحة فلا أتمثل غرفة خديجة وما فقيها من أداة وأثاث، وإنما أتمثل خديجة نفسها قد جلست إلى بعض ما كانت تلعب به، أو عكفت على درس تستظهره أو كتاب تنتظر فيه، وكأني أشاركها في اللعب أو أشاركها في الاستظهار أو أسمع بعض ما نقرأ وإنى لأدنو من الدار فأتمثل حياة الدار كلها كأنها قد غمرتني وكأني قد رجعت إلى مثل ما كنت منذ أشهر جزءاً من هذا الكل، وشعاعاً منتشراً مستقيضاً في هذه الحياة التي تملأ الدار حركة ونشاطاً واضطراباً.

وهأنذا أبلغ باب الحديقة فلا أتردد في ولوجه وأمضى أمامي مصممة كأنما أعود إلى الدار بعد ليلة من تلك الليالي التي كنت أقضيها مع أمي وأختي في ذلك المنزل الحقير، وإنى لأمضي كما تعودت مسرعة لا ألوى على شيء، وإنى لأصعد في السلم لا ألتفت إلى يمين ولا إلى شمال، وإنى لأبلغ غرفة خديجة فأدخلها وأصافد سيدتي وصديقتي عاكفة على كتاب تنتظر فيه، ولكننا كنا نلتقي على الضحك والعبث فمالنا الآن لا نضحك ولا نعبث...؟! أما هي فواجمة ذاهلة قد أخذت على غرة، وأما أنا فمغرقة في البكاء.

ثم هي تسألني: أين كنت..؟! ومن أين أقبلت..؟! وماذا صنعت في هذا الوقت الطويل..؟! وأنا لا أجيب..، أنى لى أن أجيب بغير هذه الدموع التي تنهمر، وهذه الزفرات التي تنفجر، وهذا الشهيق الذي يتردد في حلقي متصلاً ببعضه ببعض يزداد شدة وعنفاً حتى يكاد ينتهي بي إلى أزمة من هذه الأزمات التي تفسد أعصاب النساء حين يلح عليهن البكاء..!

وسيدتي وصديقتي قد أقبلت على فتتلطف لى وترفق بي وتهون على بعض ما أجد، وإن كانت لا تعرف شيئاً مما أجد. ثم يسمع الشهيق وإذا سيدة البيت قد أقبلت، وإذا هي ليست أقل دهشاً ولا وجوماً من ابنتها، ولكنها تصرف الفتاة عنى صرفاً شفقة عليها من هذا المشهد الذي قد يؤدي نفسها الشابة الناشئة، ثم تدعوني إلى أن أتبعها، ثم تهدئ روعى وتتلطف لى في الحديث وتسالني عن أمرى فلا أجيبها بشيء، أو لا أكاد أجيبها بشيء، إنما هي جمل متقطعة غارقة في الدموع فيها ذكر للرحيل على غير موعد، وفيها ذكر القرية ورؤية أهلنا فيها، وفيها ذكر لمصاب

عظيم قد ألم بنا هنا لم نكن ننتظره ولا نقدره ففقدنا أختي، وفيها ضيق بحياة القرية في ذلك الحزن المتصل، وحين إلى السادة الذين لم ألق في خدمتهم إلا خيرًا وبرًا، ثم فيها ذكر العودة المنفردة في الطريق الطويلة المخوفة، ثم انهمار للدموع وانكباب على سيدتي أقبل يديها وقدميها كأني أشفق أن تردني ردًا أو تدفعني عن الدار دفعًا؛ ولكنها حذبة على، رفيقة بي، تقيمني وتتهضني وتأمرنى أن أذهب! حيث أصلح من أمرى وأستأنف عملي في الدار، كأني لم أفارقها أشهرًا، وكأني لم أفارقها فجأة في غير استئذان، وكأني لم أزد على أن غبت يومًا أو أيامًا ثم عدت إلى مثل ما كنت فيه..! وأنا أذهب إلى حجرتي فأراها كما تركتها لم يشغلها أحد، ولم تسكنها خادم بعدى، ثيابي فيها كما تركتها وأدواتي فيها كما غادرتها لم ينقل شيء منها ولم يحول عن مكانه ثم ما هي إلا أن ألقى الخدم ويلقوني بشيء من الدهش والوجوم، وأخذ في بعض الحديث، ثم أنظر فإذا كل شيء قد استقر وإذا أنا واحدة في الدار من أهل الدار كأنه لم يكن بينين وبين الدار فراق.

ثم أعلم ما أعلم من حزن خديجة على ووجدها بي، وإبائها على أهلها أن يتخذوا لها خدمًا غيرى ونزول أهلها عند ما كانت تريد.

ثم أستأنف الحياة مع السادة والخدم كما كنت أحيها من قبل. ومع ذلك فما أكثر ما لقيت من الخطوب، وما أشد ما احتملت من الآلام، وما أطول ما أنفقت بعيدة عن الدار من الشهور! وكيف لا تطول هذه الأشهر القصار وقد كان فيها من الأحداث ما كان وقد لقيت فيها من الشر كل ما لقيت، وقد واجهت فيها الموت، وقد عانيت فيها المرض، وقد تعرضت فيها للجنون أو لمثل الجنون، وقد تعرضت فيها لكل ما تعرضت له من ألوان الفتنة والمحنة والخوف..؟

إن أهل الدار لا يعلمون من هذا كله شيئًا وهم من أجل ذلك لا يكادون يشعرون بأنى فارقتهم أو غبت عنهم، ولكن أنا أعلم من هذا كله ما أعلم وأنا من أجل هذا أشعر بأنى قد فارقتهم وقتًا طويلًا، أو أطول مما يظنون وأطول مما أظن، وأطول مما يحسب الناس أنهم قد نسوا رحلتى ونسوا عودتى وانصرفوا إلى أمر لا يفكرون فى ولا يسألون عن. ولكنى أنا لم أنس من هذا شيئًا، بل أنا أشعر شعورًا غريبًا، أشعر أنى قد أخذت من أهل الدار فتاة دفنتها هناك فى قرية بعيدة من قرى الريف تظنها هضبة من هذه الهضاب التى تلى الصحراء ثم رددت عليهم فتاة أخرى لا يعرفونها ولا يعلمون من أمرها شيئًا. أخذت منهم آمنة الضاحكة فى أكثر الوقت، الباسمة دائمًا، أخذت منهم آمنة الغرة الساذجة التى تؤثر اللعب أو تكاد تؤثره على كل شيء، والتى لا ترى فى الحياة إلا لعبًا، والتى تخدم وكأنها تلعب وتدرس وكأنها تلعب، وتتعلم من الخدمة والدرس ما تتعلم وكأنها تلعب، لا تعرف الهم ولا تتمثله، ولا تعرف أن للحياة أثقالا

وتكاليف وإنما تؤمن بأن الحياة ابتسام للنهار إذا أشرق، وابتسام لليل إذا أظلم وابتسام لما يملأ النهار من نشاط، وابتسام لما يملأ الليل من أحلام؛ أخذت منهم آمنة التي كانت تتشأ وتتمو كما تتشأ هذه الشجيرات فى الحديقة وتتمو، فيها نظرة ولين، وفيها بهجة وجمال.

أخذت منهم آمنة هذه ففرقت نفسها تفرقاً، فى الطريق حين كنت ذاهبة إلى الغرب تركت بعضها فى بيت العمدة الذى ضيفنا حين سمعت لحديث أختى وحين سمعت لحديث أولئك النساء وتركت بعضها لهذه الأشباح الحمراء التى كانت تتراءى لنا حين كنا نتحدث على سطح الدار أو حين كان يمضى بنا الجمالان فى الطريق الصامته وقد تقدم الليل وثقل، ثم تركت أكثرها فى ذلك الفضاء العريض فسال مع الدم الذى سال، ودفن مع الجثة التى دفنت وسوى عليه معها التراب ثم صب عليه معها الماء ثم تركت سائرنا نهياً لتلك العلة التى ذهبت بما بقى من نفسى وإن أبقت على بقية ضئيلة من جسمى أخذت الحياة تعود إليها بعد البرء قليلاً قليلاً أخذت منهم آمنة هذه وفرقتها على هذه النحو بين المدينة والقرية ثم رددت عليهم آمنة أخرى قد تشبه تلك فى بعض ملامح الوجه، وقد تشبهها فيما بقى من اعتدال القامة، وقد تشبهها فى طبيعة الصوت وبعض الحركات ولكنها تخالفها بعد ذلك فى كل شىء

رددت عليه آمنة الحزينة دائماً، الواجمة فى أكثر الوقت حتى كأنها بلهاء غافلة، رددت عليهم آمنة التى رأت الشر بشعاً والإثم عريان والجرم منكراً، فملأت نفسها من هذا كله وإذا هى سيئة الظن بكل إنسان، وإذا هى شديدة الإشفاق من كل شىء ومن كل إنسان، وإذا هى عابسة النهار إذا أشرق عابسة لليل إذا أظلم، وقد اتخذت لنفسها من ظلمة الليل الحالكة ثوباً كثيفاً ضافياً فأسبغته عليها إسباً وحالت به بينها وبين كل نور وأمل وابتهاج وابتسام.

نعم، رددت عليهم آمنة هذه التى لا تمسك الدموع إلا ريثما ترسلها، ولا تبسط الوجه إلا ريثما تقبضه، ولا تقبل على شىء إلا ريثما تتصرف عنه، ولا ترى فى اللعب إلا ثقلاً، ولا ترى فى الخدمة والدرس إلا عناء وجهداً. ويح أهل الدار! أيقبلون منى هذه الفتاة التى رددتها عليهم ويتسلون عن تلك الفتاة التى أخذتها منهم؟ ويحى أنا من أهل الدار إن لم يعرفونى ولم يألّفونى كما عرفوا تلك الفتاة وألّفوها! ولكنهم قومن كرام لا يضيّقون بى ولا ينفرون منى ولا يلقونى إلا بالعناية والرعاية والعطف. أو لم أتحدث إليهم بذلك المصاب العظيم الذى قد ألم بنا فملاً قلوبنا حزناً وبؤساً؟ وإذن فهم يعزّونى ويأسون جراح قلبى، وهم لا ينظرون إلى كما ينظرون إلى خادم يجب أن تعمل أو إلى رفيقه يجب أن تعين فتاتهم على ما فى الحياة من جد ولعب، وإنما ينظرون إلى كما ينظرون إلى فتاة بائسة قد آوت إليهم فهم يؤونها مكرمين لها مشفقين عليها، يؤثرونها بالرحمة والراحة والهدوء.

وخديجة.. ويح خديجة! ما كنت أحسب أن فتاة نشأت في مثل ما نشأت فيه من نعيم، ودرجت على مثل ما درجت عليه من ترف وتعودت إلا تعيش إلا فرحة مرحة، ما كنت أحسب أن هذه الفتاة تعرف كيف تصل إلى أعماق هذا القلب الحزين، وكيف تبلغ بغريزتها ما لم يكن بد من التجربة الطويلة العسيرة لبلوغه بالعقل والإرادة، إنها لتفهمنى في غير سؤال، إنها لترحمنى في غير تكلف، إنها لترثى لى في غير كبرياء، إنها لتتصرف بى عما ألفت من فرح ومرح ومن دعابة ولعب، إنها لتتحدث إلى حديث الفتاة العاقلة الرشيدة، إنها تشغلنى عن همى بما تقص على من أمرها أثناء غيبتى وبما تقرأ على مما قرأت أثناء هذه الغيبة وبما تقرؤنى مما لم أشاركها في قراءته، إنها لتفتح لى أبواباً ما كانت لتخطر لى على بال، إنها لتتبنى بناً عجيب لم أفهمه إلا بعد مشقة وجهد وتكرار! تتبنى بأنها قد أخذت تتعلم لغة أخرى تسميها الفرنسية فلا أفهم منها شيئاً، لغة أخرى! وكيف يكون ذلك؟ إنى أعرف أن هناك لغة الريف التى كنت أتحدثها، ولغة القاهرة التى تتحدثها خديجة، ولغة ثالثة تقرؤها فى الكتب فلا نعجز عن فهمها وإن وجدنا فيه بعض العسر، فكيف توجد لغة أخرى، وما عسى أن تكون، وكيف يتعلمها الناس؟ أنها تظهر لى كتباً ما كنت أقدر أن أراها، وإنى لأنظر هذه الكتب فلا أفهم منا إلا بعض الصور، وإنى لأحاول النظر فى الحروف فلا أعرف لها أولاً ولا آخرًا، ولا أعرف لها رأساً ولا ذيلًا وإنها لتضحك فى رفق، وإنها لتحس شيئاً من الكبرياء لأنها تعلم ما لا أعلم، وإنها لتحاول القراءة فى هذه الكتب تبلغ من ذلك ما لا أبلغ، وإنها لتترجم بعض ما تقرأ فأفهم عنها ما تقول بالعربية وأدهش وينتهى بى الدهش إلى أقصاه..

وهذا أستاذها السورى قد أقبل وإنها لتلقاه فيتحدث إليها وترد عليه بهذا الذى لا أفهمه فأزداد بها وبه إعجابًا وفتنة، وهذه خديجة تكبر فى نفسها وتكبر فى نفسى وتقوم منى مقام المعلم، وإذا هى تقرؤنى هذه الحروف التى لم أكن أقرؤها، وتعلمين هذه اللغة التى لم أكن أعلمها، وإذا أنا تلميذة لها فى الصباح وتلميذة معها فى المساء وإذا المعلم بارع وإذا التلميذة على حظ من نكاه، وإذا أنا أجد فى هذه الحياة الجديدة وفيما نقرأ معًا وما نتعلم معًا عزاء أى عزاء؛ ونسيانًا أى نسيان؟ وإذا الأستار تلقى شيئاً فشيئاً بينى وبين هذا الماضى البشع القريب، وإذا كل شىء فى هذا الماضى ينمحي قليلاً قليلاً إلا شخصين اثنين لا ينمحيان ولا يتضاءلان وإنما يرتسمان فى نفسى ارتساماً قوياً، ويتمثلان أمامى تمثلاً متصلًا ملحًا وهما شخص أختى صريعًا يتفجر من صدرها الدم فى الفضاء العريض، ويغمغم فمها بكلمات لا أفهمها، وشخص ذلك المهندس الشاب الذى أغواها ودفعها دفعًا إلى ذلك الفضاء العريض الذى صرعت فيه.

نعم! ذلك المهندس الشاب الذى أغواها ودفعها دفعًا إلى ذلك الفضاء العريض الذى صرت فيه. لقد منحها الحياة ولقد قضى عليها بالموت وهل ذاقت البائسة من لذة الحياة ونعيمها إلا هذه الثمرات الحلوة المرة التى حنتها فى هذه الدار القائمة من دارنا غير بعيد! إلى هذه الدار دفعت حين هبطت من أقصى الريف، فأخذت تعرف الحضارة وتألفها وتبلو من طبيباتها ما رقق لها العيش وقد كان غليظًا، وحبب إليها الدهر وقد كان بغيضًا،

فيها عرفت الترف واطمأنت إلى النعيم! ولم تكذ تنشأ وتنمو حتى مد لها الحب ذراعين فيهما النعيم والبؤس وفيهما الرحمة والعذاب، فأسرت إلى ما كان يتراءى لها من ذلك جاهلة له مفتونة به متهاكة عليه ثم انصرفت كارهة عما بلت، وما أدرى ماذا كان يحزنها ويمزق فؤادها تمزيقًا حين كانت تقص على أنباءها وتحديثي بأحاديثها: أهو الندم على ما قدمت من ذنب واقترفت من خطيئة أم هو الأسف على ما فارقت من لذة وحرمت من نعيم؟ وما أدرى ما الذى كان يملأ قلبها فرقًا وربعًا حين كان تتراءى لها تلك الأشباح الحمراء: أهو الموت الذى كانت ترى نذيره منكرًا بشعًا ومسمعه صارخًا ملحًا، أم هو اليأس الذى كان يقطع الأسباب بينها وبين هذا المهندس الشاب، ويلقى بينها وبين الحب ولذاته وآلامه حوائل وموانع لا سبيل إلى أن تجتاز؟

نعم! هذا المهندس الشاب! لقد ارتسم شخصه فى نفسى ارتسامًا قويًا ملحًا ليس إلى محوه من سبيل. ولقد كمنت أرى أختى فإذا هو ملازم لها كأنه الظل، بل كأنه ظل من هذه الظلال الحمراء التى كانت تلازمها حين كنت أراها أثناء العلة وحين كانت تعرض لى فى الطريق! بل لقد تفرقت عن أختى كل هذه الظلال وانمحت انمحاء ولم يبق معها إلا هذا الظل الذى لا أكاد أراه حتى تضطرب نفسى اضطرابًا عنيفًا وحتى يثور فى قلبى شعور قوى مختلط غريب شديد التعقيد، شعور فيه الخوف والرغبة، وفيه البغض وشيء يشبه الحب، أو حب الاستطلاع على أقل تقدير...

من هذا الشاب؟ أو من عسى أن يكون؟ وكيف يمكن أن يكون؟ أى شىء فيه أغوى هذا الفتاة البائسة ودفعها إلى ما دفعت إليه؟ ما عسى أن يكون حظى منه إن لقيته، وأن يكون حظه منى إن لقينى؟ أو أحبه أم أبغضه؟ أيجبنى أم يبغضنى؟ ما هذه الغواية التى أفسدت على أختى أمرها وأفسدت علينا جميعًا أمرنا، وقضت على أختى بالموت ونغصت علينا جميعًا لذة الحياة؟

خواطر كانت تملأ قلبي إذا أصبحت، وكانت تملؤه إذا أمسيت، وكانت تلح عليه بين ذلك فلا ترد عنه إلا في شيء من الجهد والعنف حين تلح على خديجة في الحديث أو في القراءة أو في مشاركتها فيما كانت تحرص على أن أشاركها فيه من الدرس والاستظهار.

خواطر كانت تملأ قلبي في اليقظة، وكانت تملؤه في النوم، وكانت تصرفه عن كل شيء إلا عن هذه الفتاة التي سفك دمها في ذلك الفضاء العريض، فذاقت الموت وذهبت نفسها إلى السماء وهوى جسمها إلى الأرض وهيل عليه التراب؛ وإلا هذا الفتى الذي ما زال يغدو ويروح فرحاً مرحاً، مغتبطاً مستبشراً، تبسم له الحياة ويبسم هو الحياة.

ليتني أدرى أذكر ضحيته تلك أم قد نسيها، وليتني أدرى أذكرها إن ذكرها في شيء من الرفق بها والعطف عليها والحنين إليها، أم يذكرها إن ذكرها في إعراض الزاهد وانصراف المزدري! وأين تكون هذه الفتاة من نفسه وما أكثر الفتيات في نفسه! لقد كان بالقياس إليها كل شيء، ولم تكن هي بالقياس إليه شيئاً، لم تعرف غيره وعرف هو غيرها كثيرات، لم تذق لذة الحياة إلا بين ذراعيه، وما أكثر المواطن التي ذاق هو فيها لذات الحياة! وما أكثر ما ذاق من ألوان اللذات وما بلا من صنوف النعيم! وليتني أعرف كيف يلقي ذكرها إن ذكرت له: أيبسم لصورتها أم يلقاها بالعبوس! بل ليتني أعرف كيف يلقي النبأ البشع المروع إن ألقى إليه: أبحزنه أن يعلم أنها ذاقت الموت وأنها ذاقته لأنه هو قد دفعها إليه، أم يقع هذا النبأ من نفسه موقعاً يسيراً فلا يثير في قلبه حزناً ولا أسفاً ولا يسلط على نفسه لوعة ولا ندماً!

وكذلك امتلأت نفسي بهذا المهندس الشاب، حتى لقد كنت ألتمس الفرار منه فلا أظفر به إلا في جهد أي جهد وعناء أي عناء، وحتى لقد أنكرت نفسي وأنكرت من كان حولى من الناس والأشياء وأنكرني من كان حولى حين طال عليهم ما كنت مغرقة فيه من الوجوم والذهول، إلا خديجة فإنها لم تنكرني ولم أنكرها، وإنما مضت فيما كانت فيه رفيقة بي عطوفاً على، تعزيني وتسليني وتفتن في ذلك ما وسعها الافتتان، وأنا أعرف لها هذا فأحمده وأقدره وأرد عليها بعض ما كانت تسدى إلى من جميل، فأنصرف إليها حين ألقاها عن هذه الخواطر، ويفرغ قلبي لما أسمع من حديثها ولما أشاركها فيه من درس، ولكن لا ألبث أن أعود إلى ما كنت فيه من وجوم وذهول. وتحس ه منى ذلك فتصرف عن بعض الشيء وتتركني لما أنا فيه، كأنها تقدر أني أجد في هذا الوجوم والذهول لذة وراحة واطمئناناً.

وما تزال هذه الخواطر تلح على وتستاثر بي حتى تستحيل إلى شيء من الرغبة القوية الملحة في أن ألقى هذا الشاب فأسمع منه وأتحدث إليه. وأنا ألتمس أخباره وأتتبع أسراره وتلقط ما يلقي عنه من حديث. ولم تكن داره بعيدة من دارنا، وكأن الظروف قد ائتمرت بي فهيات لى أن أرى ذهابه ومجيئه من نافذتى حين يغدو من داره أو يروح إليها من هذه النافذة التي طالما كنت

أبادل أختى منها الإشارة وأسارقها منها بعض الحديث. من هذه النافذة التى لم أذكرها ولم أذن منها حين عدت إلى الدار، وإنما مكثت أياماً وأسابيع أجهلها جلا وأهملها إهمالاً. ثم خطرت لى فجأة وفرض على مكانها فرضاً، فإذا أنا أدنو منها وجلت وأفتحتها جزعة محزونة، أريد أن أقف إليها لأتمثل فيها صورة "هنادي" ذاهبة جائية، متغنية بما كانت تتغنى به من أغنى الريف ثم أغنى المدينة. وإنى لأخذ موقفى من النافذة فى الأيام الأولى فلا أرى شيئاً ولا أسمع شيئاً، وإنما هو قلب ينفطر ودموع تتهمر، وصورة لأختى لا تأتى من الدار ولا تعبر إلى ما بينى وبينها من طريق، وإنما تأتى شاحبة حزينة من قلبى هذا الأسف الحزين، وأنا مع ذلك أطيل الوقوف إلى النافذة وأكرره، وأدنو منها كلما أتيت لى الدنو فى النهار حيناً وفى الليل أحياناً. ألفها وتألبنى، حتى أصبح وقوفى منها وجلوسى إليها عادة طبيعية من عاداتى كلما دخلت الحجرة وأغلقت بابها من دونى، والأيام تمضى وتتبعها الليالى، وإذا أنا أقف إلى النافذة وأجلس إليها فلا تتهمر الدموع، ولا تتمثل لى صورة أختى شاحبة كئيبة، وإنما أنا أرى أمامى وأنظر، فإذا صورة أختى كما كنت أعرفها تذهب وتجى، صوت أختى ينتشر فى الفضاء فيلموه فرحاً ومرحاً وبهجة وسروراً، متغنية بهذه الأغنية التى طالما كانت ترددها بصوتها الرخيم الممتلئ العذب فيحملها الهواء إلى النفوس كأنها قطرات الندى:

آه يانا يانا من غرامه يانا	وإن كنت أحبه على ما ملامه
----------------------------	---------------------------

وما كنت أفهم من هذه الأغنية إلا ما يفهمه الناس جميعاً، إن كان الناس يفهمون منها شيئاً؛ فهى شائعة ذائعة فى المدينة وفيما حولها من القرى تسمعها فى كل عرس وتسمعها من كل امرأة ومن كل فتاة، بل من كل صبية تحاول الغناء أو تقصد إليه، أما الآن فمالى أتمثل أختى كئيبة حزينة يائسة، كأنها ظل شاحب ليس له ثبات ولا استقرار، وإنما هو هائم مضطرب يصدر عنه صوت ضئيل نحيل كأنه الصدى، وهو ينتشر فى الجو انتشاراً يملأ القلوب لوعة وأسى، وهو يحمل هذه الأغنية كأنها شرر النار لا تمس قلباً إلا أحرقتة إحراقاً، ولا تبلغ نفساً إلا فرقته تقريباً؟! مالى أسمع هذه الأغنية فأفهم منها ما لم أكن أفهم، وأعلم منها ما لم أكن أعلم، وأحس منها ما لم أكن أحسن، وأستكشف فيها من المعانى والمرامى والأغراض ما لم يكن يخطر لى من قبل على بال؟

إن هذه الآهة التى يرسلها الصدى النحيف ممتدة ضئيلة لا تكاد تثبت ولا تكاد تنتهى، لتثير فى نفسى عواطف لم أكن أعرفها ولم يكن لى بها عهد، وإن هذا النداء ليصور لنفسى الأئين كما يصور لنفسى الاستغائة وكما يصور لنفسى اليأس من البر حتى ينكر. وإن هذا الاعتذار ليصور لنفسى الهيام فى غير احتفال بالعاقبة، ولا ندم على ما كان، ولا تقدير لما هو

كائن، وإنه ليصور لنفسى جرم هذا الخال الأثيم الذى سمع الأغنية ألف مرة ومرة فلم يعقلها ولم يفهمها ولم يبرىء هذه المحبة الهائمة من اللوم، ولم يعفها من الإثم، ولم يصرف عنها العقاب، لأنه جامد القلب جافى الطبع، خشن النفس غليظ المزاج، لم يذق لذة الحب ولا ألمه، ولم يعلم أن من الحب ما يكون فوق اللوم، وما يكون فوق الإثم وما يكون فوق العقاب.

نعم! وإنى لأسمع هذا الصوت الضئيل النحيل ينشر هذا الغناء اليأس الحزين، فأتصور هذا المهندس الشاب قد برع جماله حتى أصبح فتنة لا تتقى وسحرًا لا يقاوم، وقد رق حديثه حتى أصبح شركًا يصيد القلوب وحباله تختلس النفس، وقد لطفت حركاته حتى لم يبق للامتناع عليها سبيل، وإنى لنظر فإذا هذه الأغنية تثير أمامى صورًا ثلاثًا: صورة هذا الفتى الجميل الرائع يجرى بالإثم ويدفع إليه، وصورة هذا الشيطان الآثم المرید يأخذ بالإثم ويعاقب عليه، وصورة هذه الفتاة البائسة اليائسة يتنازعها الإغراء المضنى والعقاب المفنى. ثم أنظر إلى هذه الصور فأسأل نفسى أين أنا منها؟

أما خالى فإنى أبغضه بغضًا لا حد له، ولو ظفرت به لمزقته تمزيقًا. وأما أختى فإنى أرثى لها رثاء لا حد له، ولو استطعت لرددت إليها الحياة، وأما هذا المهندس الشاب فما أدرى أين يكون مكانى منه: أهو مكان المبغضة العدو أم هو مكان المحبة الهادئة؟! إنه النار المضطربة، وإنى الفراشة التى تهفو إليها وتكلف بها ولكن عن علم بأنها محرقة مهلكة... لأعلمن من علم هذا المهندس الشاب أكثر مما علمت، وليكونن لى منه مكان لم أكن أقدره. لأطفئن هذه النار أو لأحترقن بلهبها المضطرم.

ومنذ ذلك الوقت أخذت أستيقن بأن حياتى موصولة بحياة هذا الشاب، وبأن مقامى فى بيت المأمور موقوف، وبأن انتقالى منه إلى بيت هذا الشاب محتوم إن لم يتم اليوم فسيتم غدًا.

ولزمتُ النافذة أرقب منها الدار أثناء النهار وأوائل الليل، كأنما وكلت بحراستها أو تتبع ما يجرى فيها. وما هي إلا أن أعرف مواعيد غدو الفتى ورواحه وخروجه من داره للسمر إذا أقبل الليل، ورجوعه للنوم إذا انقض من الليل أكثر من ثلثيه وإذا أنا قائمة إلى النافذة في هذه المواعيد أراه حين يخرج، وأراه حين يدخل، ولا تطمئن نفسي لأمر من الأمور أو عمل من الأعمال إلا إذا رأيته غادياً أول النهار ورائحاً بعد الظهر - فإن حيل بينى وبين ذلك لطارئ من قبله أو من قبل فهي الحياة المضطربة والنفس المفرقة، والفكر المشرد والقلب الذى لا يهدأ ولا يستقر.

ثم يشتد الأمر بى وتلح الرغبة فى هذه المراقبة على، وإذا أنا أتلمس الأيام التى لا يخرج فيها من داره مع الصبح فأبقى فيها أمام النافذة أترقب ما أرجح أنه لن يكون، ولكنى أترقبه على كل حال لأنى لا أريد أن يفوتنى مخرجه من الدار، كأنما اتصلت به حياتى اتصالاً، ومدت الأسباب المتينة بين هذه الدار وبين قلبى ونفسى وعينى، فهى لا تبرح خاطرى مهما تكن الظروف، وهى تجذبنى إلى النافذة جذباً، وأنا أحس مع ذلك أن هذا ليس إلا أول الشر، وأن يوماً قريباً أو بعيداً سيأتى من غير شك لا تجذبنى الدار فيه إلى النافذة لأراها ولأرى هذا الشاب خارجاً منها أو عائداً إليها، بل تجذبنى الدار إلى نفسها لألج باباها وأعرف أصحابها، وأتحدث إلى من فيها، ولو أنى أرسلت نفسى على سجيته وخليته بينها وبين ما كانت تريد لما تأخر مقدم هذا اليوم، ولكنى دافعت نفسى عن هذه الدار دفاعاً شديداً، وجادلت نفسى فى الاتصال بها جدالاً طويلاً، وظفرت من هذا الجدل وذلك الدفاع بتأخير اليوم المحتوم أسابيع بل أشهراً لست أدرى أكانت طوالاً أم قصاراً، ولكنى اعلم أن احتمالها كان ثقيلاً، وأنى كنت لا أستقبل النهار حتى أستيقن أن الهزيمة ستتم فيه، ولا أستقبل الليل حتى أثق بأنه لن يتقدم حتى يكون التسليم والإذعان وأمضى مع ذلك فى جهاد نفسى ومدافعتها، حتى إذا استقر كل شيء وغلقت الأبواب، وانقطعت سبلى إلى الدار، اضطررت إلى أن آوى إلى مضجعى، وسجلت لنفسى يوماً من أيام النصر وأمداً من أماد الفوز، وأجلت الهزيمة والتسليم إلى غد.

وانى لأرى نفسى ذات يوم وقد تقدم النهار حتى كاد ينقضى وأخذت طلائع الليل الشاحبة تغزو الأرض، وانى لأرانى خارجة كالمنسلة من دار المأمور ساعية كالهاربة التى تحرص على الاستخفاء، أدور حول الدار مجاورةً أسوار الحديقة حتى لأكد أمسحها مسحاً، ثم منعطفة بعد قليل، ثم منطلقة كالسهم حتى أقطع ما بين الدارين من طريق، وألج حديقة المهندس، ثم أسعى هادئة مضطربة معاً نحو البستانى كأنما أريد أن أسأله عن شيء، حتى إذا

بلغته لم أستطع أن أقول له شيئاً، وإنما وقفت أمامه ذاهلة غافلة بلهاء يملكنى الخوف ويغمرنى الحياء. أريد أن أمضى أمامى حتى أدخل الدار وأبلغ غرفة "هنادى" فأقضى فيها لحظة أو لحظات، ولكنى لا أستطيع أن أتقدم، والبستاني يسألنى من أنا ومن أين أقبلتُ وماذا أريد؟ فإذا ألح على فى السؤال وأحست أن صمتى يطول وأن الرجل سينتهى إلى الضيق بى وبما أعرض عليه من غفلة وبله وذهول، وليتُ مدبرة، وانصرفت نافرة لا ألوى على شىء، كأننى أخشى أن يتبعنى تابع أو يتعقبنى متعقب. وما أزال أشدد فى العدو حتى أبلغ دارنا فأنسل إليها لم يشعر بخروجى منها ولا بعودتى إليها أحد. ثم أمضى متجاهلة متعاقلة حتى أبلغ غرفتى وأخذ موقفى من النافذة وقد سجلت على نفسى بعض الهزيمة وإن لم أنته بها إلى الغاية.

على أنى ألفت الطريق بين هاتين الدارين، وألفت البستاني والاختلاف إليه، والأخذ معه فى أطراف من الحديث، وتبادل الإشارات معه من النافذة ومسارقتة بعض الكلام.

ثم لم تتصل الأيام بينى وبين هذا البستاني حتى كان الظاهر من أمر هذا المهندس الشاب عندى واضحاً معروفاً: أعرف من عاداته وأطواره ومن ذهابه وإيابه ومن جده وهزله ما يمكن لمثلئى أن يعرفه حين يتصل بخدمه والمقربين إليه.

على أن المعرفة لم تقتصر على البستاني وإنما تجاوزته إلى الخادم؛ فقد كان هذا المهندس لا يستطيع إن يكتفى ببستانيه، وإنما هو فى حاجة إلى خادم تصلح من أمره وتشرف له على نظام الدار، وقد علمت أن أختى لم تكذ تفارقه حتى تعجل البحث عنم يخلفها واهتدى بعد قليل من الوقت إلى هذه الفتاة الجميلة الوداعة ذات الوجه المشرق والجسم البيض والعقل الضيق القصير. اهتدى إلى "سكينة" هذه التى أقامت عنده خليفة لأختى والتى كنت أتحدث إليها فلا أرى عندها غناء، ولا أجد فى الاستماع إلى أحاديثها لذة، ولا أجد نشاطاً إلى أن أشاركها فيما تخوض فيه من لغو، ولكنى مع ذلك كنت حريصة كل الحرص على أن تشتد الصلة بينى وبينها وتزول الكلفة، ولم يكن فى هذا مشقة ولا عسر، فما أسرع ما اتصل الحديث! وما أسرع ما انتهينا به إلى الدخائل والأسرار! وما أسرع ما أحسست فى نفسى عداوة آثمة تشتد كل يوم وتنمو حتى تملأ قلبى وتملك على كل أمرى وتكاد تخرجنى عن طورى وتدفعنى إلى ما خير فيه، فقد فهمت - وليتتى لم أفهم - أن سكينة لم تخلف هنادى على الإصلاح من أمر الدار والقيام بما تحتاج إليه من خدمة فحسب؛ وإنما خلفتها على قلب هذا الشاب إن كان لهذا الشاب قلب، بل خلفتها على هواه ومجونه وعلى إثمه وغوايته، وما أكثر ما لهذا الشاب من الهوى والمجون، ومن الإثم والغواية! إنما هو صائد يحتبل الفئات احتبالاً ويختلبهن اختلاباً، يصرفهن عن الجادة وينحرف بهن عن القصد، حتى إذا بلغ منهن منا يزدهد فيهن خلى بينهن وبين ما ينتظرهن من الموت أو من حياة هى شر من الموت.

وإذن فقد خان هنادى ولم يحفظ لها عهداً ولم يستبق لها مودة، ولم يكد يفارقها حتى انصرف عنها وزهد فيها، والتمس لذته وهواه حيث استطاع لم يحفل بما قدم من سوء، ولم يحفل بما قدمت إليه من تضحية، ولم ينظر إلى هذا كله إلا على أنه لعب ينفق فيه الوقت ويستعان به على احتمال الحياة وتسلى به الغربة فى مدن الأقاليم.

هو خائن إذن، وهو يضيف إثم الخيانة إلى إثم الغواية، وهو خليق أن يلقي جزاء هذين الإثمين كأشنع ما يكون الجزاء، وهو لاق حظه من هذا الجزاء فى يوم من الأيام، ولاقيه من يد آمنة هذه التى شهدت الموت مرتين: شهدته حين عدى على أختها من يد ذلك الخال الأثيم فى ذلك الفضاء العريض، وشهدته حين عدى على ذكرى أختها من يد هذا المهندس الشاب الغوى وفى هذه الدار الصغيرة الأنيقة التى يقوم عليها البستاني وتضطرب فيها سكينه كما كانت تضطرب فيها هنادى.

أغيرةٌ هذه التى تضطرم فى قلبى اضطراراً وتجب إلى التفكير فى الموت وكيف يساق إلى الناس، وتحبب إلى التفكير فى الخناجر التى تمزق الصدور وفى السم الذى يمزق الأحشاء؟ أغيرةٌ هذه التى يغلى لها الدم فى عروقى ويصعد لها اللهب فى وجهى وتقذح لها عيناى بشيء كأنه السرور، يحمل أهل الدار على أن ينكروا منظرى وعلى أن يتساءلوا ما خطبى وإلى أى حال سينتهى بى ما أنا فيه من الذهول!؟

أغيرةٌ هذه التى زادت الحزن عن نفسى وأقامت مكانه غضباً ثائراً متصلاً لا يهدأ ولا ينقضى؟ ولمن أغار أو على من غار؟ أغائرةٌ أنا لهذه الأخت البائسة التى ذاقت الموت فى سبيل هذا الفتى دون أن يكون لتضحيتها أهلاً؟ أغائرةٌ أنا لهذه الرغبة التى كانت تملأ نفسى وتملك قلبى وتدفعنى دفعاً إلى أن أعرف من أمر هذا الشاب ما كنت أجهل، والتى لم تكذب تبلغ غايتها حتى انتهت إلى يأس مهلك لا مخرج منه ولا آخر له؟ أغائرةٌ أنا لهذا التفكير الطويل فيمن لم يكن أهلاً للتفكير؟ لمن هذه الغيرة وعلى من هذه الغيرة، أو إلام تريد أن تنتهى بى هذه الغيرة؟

لا أدرى! ولكنى أعلم أنها قد جعلت مقامى فى دار المأمور عسيراً وعشرتى لخديجة شاقة! فقد توحشت أو كدت أتوحش، وأصبحت نافرة من كل شيء حتى من خديجة التى لم أكن أظن أنى سأعرض عنها، يوم من الأيام، وقد أخذت أحسن أن مقامى قد أخذ يتقل، وأنى عشرتى قد أخذت تشق على من حولى، وأن خديجة قد أخذت تجزىنى جفاءً بجفاءً وإعراضاً بإعراض.

لك الله يا آمنة إلام تدفعك هذه النفس المضطربة التى لا تهدأ، وهذه العواطف الثائرة التى لا تستقر، وهذا القلب الهائم الذى لا يعرف ما يريد!؟

obeykandl.com

وأصبحت ذات يوم فإذا شيء غريب يضطرب في جو الدار أحسه ولا أتبينه، وأشعر به ولا أحققه، ألمحه في وجه الأمور وفي وجه ربه البيت حين ينظران إلى خديجة ثم يسترقان نظرات فيها أمل مبتهج وحزن مكتئب، وحين يخلوان للحديث بعد الغداء أو بعد العشاء فتطول بينهما الخلوة أكثر مما تعودت أن تطول. وألمحه في هذا الابتسام الذي يهديه الأمور سخياً كريماً إلى أهل الدار جميعاً، متحدثاً إلى من لم يكن يتحدث إليه، متلطفاً لمن لم يكن يحفل بوجوده، وفي نظرات طويلة يلقيها على أنا حين يلقاني، وفيها تظهر ربة البيت من تبسط مع الخدم وعطف عليهم والميل إلى أن تأخذ معهم بأطراف الحديث.

ألمحه في هذا كله، ولكنى أجد فيه غموضاً يثير ميلى إلى الاستطلاع، ويكاد يسلبني بعض الشيء عن المهندس الشاب وعما يقع في داره من خيانة وإثم وعما يثير في نفسى من غضب وغيره، وأهم أن أسأل خديجة عن هذا الذى ألمحه ولا أستبينه، ولكنى أجدها غافلة لا تلمح شيئاً ولا تحس شيئاً فأعرض عما هممت به وأكتفى بالملاحظة والانتظار. على أن الانتظار لم يطل، فما تنقضى أيام قليلة حتى تظهر حركة في دار المهندس الشاب تستتبع حركة في دارنا، ثم تتلاحق الحوادث مسرعة، وإذا هى تملكنى وتغمرنى وتستأثر بى وتتسنى كل شيء وتذكرنى بكل شيء فى وقت واحد وتخرجنى من هذا السكون اليأس الذى لزمته إلى نشاط يأس دفعت إليه دفعا.

هذا بيت المهندس الشاب قد ظهرت فيه الحركة وكثر فيه الاضطراب فأثائه ينقل من مكان إلى مكان ويناله الإصلاح والتنظيف والترتيب، ويؤتى إليه بأثاث لم يكن فيه، بعضه مشترى تظهر عليه الجودة، وبعضه مستعار يظهر عليه القدم، كأنما تتهيأ الدار لاستقبال بعض الزائرين، فهى تعد لهم ما يحتاجون إليه من الغرفات والحجرات ومن الأدوات والأثاث.

والبستاني مسرف فى الحركة مندفع فى النشاط، أراه هنا وأراه هناك، وقد استعان باثنين أو ثلاثة من شباب المدينة يعملون معه فى النقل والتنظيف والترتيب، وسكينه تعمل معهم لا راضية ولا ساخطة، لا مبتهجة ولا مبتسمة، وإنما هى تذهب وتجيء كأنها أداة لا تعرف الرضا ولا السخط، ولا تحس الحزن أو الفرح.

وهذه الحركة المتصلة فى بيت المهندس قد أثارت حركة فائرة منقطعة فى بيتنا! فهذا سرير ينقل، وهذه وسائد تعار، وهذه آنية تجمع ثم تحمل، وهذه ربة البيت تكلفنى راضية باسمه أن أذهب إلى بيت المهندس فأعين الخدم على بعض ما يعملون، وأن أشرف على التنظيم والتنظيف والترتيب، وأن أعنى بأن تهيأ الدار لاستقبال الزائرين تهيئة حسنة لا عيب فيها ولا

نقص. ثم هذه ربة البيت تستعد فى بيتها لتهيئة الطعام الذى سينقل إلى بيت المهندس إذا كان الغد، ولإعداد الوليمة التى ستقام فى دارها إذا كان اليوم الذى يليه.

وما أكاد أذهب إلى بيت المهندس وأخذ مع الخدم فى العمل والحديث حتى أعلم - وليتتى لم أعلم - وأفهم - وليتتى لم أفهم - أن أسرة المهندس مقبلة من القاهرة إذا كان الغد لتقيم مع ابنها أيامًا وأسابيع، وأن هذه الزيارة ليست كغيرها من الزيارات، وإنما هى زيارة تتم لأمر يراد، فستخطب بنت المأمور والمهندس الشاب، وستشهد المدينة أفرًا لم تشهدا منذ عهد بعيد، وسيسمع أهل المدينة من ألوان الغناء ما لم يتعودوا أن يسمعوا من قبل؛ فلن يقرأ عليهم المولد هذا المغنى المشهور الذى يقيم فى عاصمة الإقليم والذى يتعصب له أهل العاصمة وما حولها من القرى وما يجاورها من المدن. ولن يقرأ لهم المولد هذا المغنى الآخر الذى يقيم فى أقصى الإقليم أو ما يقرب من نصفه، ولن يقرأ لهم المولد الشيخ المذكور هذا الذى يقيم فى المدينة نفسها ويحبه أهل الريف، ولكن شهرته لا تتجاوز المدينة إلا قليلا، لن يقرأ لهم المولد واحد من هؤلاء المغنين؛ ولكنهم سيسمعون لمغن يأتى من القاهرة، قد يكون عبد الحى، وقد يكون الشيخ يوسف، وقد يكون غيرهما من كبار المغنيين. ستأتى العوالم من القاهرة، وستأتى مغنية مشهورة لتطرب السيدات، وستقام الزينة وتولم اللواتم على أحسن طراز وأجمل شكل، وسيأتى المنظمون لذلك والمشرفون عليه من القاهرة لا من المدينة ولا من عاصمة الإقليم، وكان الخدم يفيضون فى ذلك، ويجرون فى تفصيله مع هذا الخيال الريفى الساذج الذى يحسب أنه يمضى أمامه إلى أبعد أمد على حين لا يزال فى مكانه لم يتجاوزه أو لم يكد يتجاوزه إلا قليلا.

كانوا يفيضون فى الحديث عن المغنى والمغنية، وفى الحديث عن الطهارة الذين سيهيئون الطعام، وعن الفراشين الذى سينظمون الوليمة ويطوفون على الناس بالأطباق والأقداح، وعن الموسيقى التى ستأتى من القاهرة فتقضى فى المدينة يومين أو أيامًا تُطرب الناس فى الصباح وتطرب الناس فى المساء، وعن المدعوين الذى سيشهدون الحفل الذين يدعون إليه من قريب ومن بعيد، وفيهم البشاوات والبكاوات، وفيهم العلماء من شيوخ الأزهر.

كانوا يفيضون فى هذا كله، ويجدون فى الإفاضة فيه لذة يتعجلون بها الحوادث ويستبقون بها إلى ما ينتظرون من فرح وغبطة وابتهاج. وكنت أنا أسمع لأحاديثهم فأفهمها، وأعى أقلها وأهمل أكثرها، وأفكر فيما لم يكن بد من أن أفكر فيه، وهو أن هذا المهندس الشاب قد أغوى أختى ثم دفعها إلى الموت، ثم أخذ يخونها وينتهك ما كان يجب لها عنده من حرمة، ثم هو الآن ينظم الخيانة تنظيمًا، ويريد أن يأتيتها ويقدم عليها ويمضى فيها جهرة باسم الدين والعرف والقانون.

نعم! ولن تكون سكيئة هذه الغافلة البلهاء التى لا أعرفها ولا تعرفنى إلا منذ حين، لن تكون خليفة هنادى على بيت هذا الفتى وقلبه ومجونه وإثمه، ولكن التى تخلف هنادى على هذا كله سيكون خديجة! خديجة أحب الناس إلى وآثرهم عندى وأحسنهم مكانًا من قلبى، خديجة التى أجد عندها - وعندها وحدها - العزاء عما لقيت من شر وما احتملت من نكر وما ألم بى من مكروه، خديجة التى أستعين بها على احتمال هذا الخطب الذى أصابنى فى أختى وفى أهلى، هذه هى التى ستراد على أن تأخذ من قلب المهندس الشاب، ومن بيته، ومن حياته كلها مكانًا ما ينبغى لفتاة أن تأخذه بعد أن سبقت إليه هنادى وأدت ثمنه بذلك الدم الزكى الذى أريق فى ذلك الفضاء العريض!

ولم أكن أسأل نفسى كيف يكون موقع هذا النبأ من نفس خديجة حين يلقى إليها: أتكره وتضيق به، أم تحبه وتبتهج له؟ ولم أكن أسأل نفسى كيف تجد خديجة موقفى منها حين أحاول أن أصد عنها حب هذا الرجل الآثم وأن أردّها عنه، وأن أبذل فى ذلك من القوة والجهد ومن الحيلة والذكاء ما أملك وما لا أملك؟

لم أكن أسأل نفسى عن شىء من هذا، ولكنى كنت تائرة أشد الثورة وأعنفها، مؤمنة أشد الإيمان وأقواه بأن هذا الأمر لن يكون، مصممة أشد التصميم على ألا يكون مهما تنهياً له الظروف ومهما تتظاهر عليه القوى.

ثم لم أكن أسأل نفسى عن كل هذه الخواطر التى كانت تجيش فى صدرى وتبعث فى هذه الثورة وهذا الإيمان وهذا التصميم: أكانت خواطر صادقة أم كانت كاذبة؟ أكنت وفيه لأختى بالعهد مشفقة على حقها أن يضيع، حريصة على أن أحتفظ لها بهذا العاشق الخائن رغم أنفه، مقاومة فى سبيل ذلك قوة الفطرة وقوانين الحياة، أم كنت أتخذ هذه الخواطر حجة وتعلة أخفى بها على نفسى ما لا أحب أن تظهر عليه، وأستر بها دون قلبى ما لا أجد الشجاعة على أن أواجهه به فى صراحة وجلاء؟

لم أكن أسأل نفسى عن شىء من هذا، بل لم أكن أسأل نفسى عن شىء ما، وإنما كنت أفنى قوتى وجهدى فى التفكير فى أن أحول بين خديجة وبين هذا التدبير الذى يدبر وهذا الكيد الذى يراد وكثيرًا ما كان يخطر لى أنى أحمى خديجة من شر عظيم، وأحول بينها وبين خطر منكر، وأقوم دونها أن يفترسها السبع أو يغتالها الذئب، وأضن بها على أن تبتذل لهذا الجرم الآثم الذى لا يعرف حقًا ولا يرمى حرمة ولا يرجو وقارًا لخلق ولا دين، وكثيرًا ما كنت أقدر أن قيامى دون خديجة وحمائيتها من هذا الخطر الذى يوشك أن يلزم بها فرض يأخذنى به الوفاء لما بيننا من مودة، والرعاية لما لها عندى من جميل. وكثيرًا ما كان هذا كله يجتمع ويأتلف بعضه إلى بعض ويتمثل أمام نفسى مجتمعًا مؤتلفًا قد اتخذ من الوفاء والنصح والإخلاص زينة خلابة، فإذا

هو أمامى مرآة نقية صافية، أنظر فيها فتد إلى صورة نفس كريمة عظيمة قد ارتفعت عن كل نقيصة، وأصبحت مثالا للبطولة والشهامة والتضحية فى سبيل الأخت التى اغتالها الخـطر، والصديق التى يوشك الخـطر أن يغتالها.

ولو أنى حولت وجهى عن هذه المرأة بعض الشىء فى ذلك الوقت، ولو أنى نظرت فى نفسى ولم أنظر أمامها ولا من حولها، ولو أنى تعمقت قلبى وتبينت قرارة ضميرى، لرأيت شرا يا له من شر، ولشهدت هولاً يا له من هول، ولعرفت أنى لم أكن أفى لأختى ولا لصديقى، وإنما كنت أؤثر نفسى بما أراه خيراً وشرّاً، وأقف هذه النار المضطربة المتأججة على نفسى وأحميها من أن يحترق بها أحد غيرى!

نعم! ولكنى لم أكن أنظر فى نفسى ولا أحاول النظر فيها؛ وإنما كنت مدفوعة إلى إفساد هذا الأمر الذى يدبر، ومنع الأسباب أن توصل بين خديجة وبين هذا المهندس الشاب الذى كان لأختى منذ حين والذى يجب أن يكون لى بعد حين، كأنما ورثته عنها بعد الموت!

والغريب أن هذه الخواطر المضطربة كلها لم تفسد من أمرى شيئاً، ولم تغير من شكلى ولا من نظام حياتى الذى ألفه أهل الدار قليلاً ولا كثيراً إنما كنت أصبح وأمسى، وأذهب وأجى، وأعمل وأكسل، وأنشط وأفتر، كما رأتى أهل الدار من قبل، بل خيراً مما تعودوا أن يرونى فى الأيام الأخيرة، فقد ذهب عنى الذهول، وفارقنى الوجوم، واستقرت عينانى وهدأتا واستقامتا، فليستا تضطربان ولا تقدحان الشرر أو ما يشبه الشرر، ولا تنتظران هذه النظرات التى كانت تخيف منى وتثير فى النفوس من حولى شكاً وريباً وإشفاقاً، عدت إلى هدوء غير مألوف وانطلق لسانى بالحديث، بل تردد الابتسام على شفتي، وأخذ الإشراق يتفرق فى وجهى من حين إلى حين، حتى لم يشك أحد فى هذا القرع الطارئ قد شفانى مما كنت أجد، ورد إلى ما كان قد فارقتى من اعتدال المزاج.

ثم نصبح وإذا الزائرون قد أقبلوا، وإذا النشاط المبتسم السعيد يملأ الدار جميعاً، وإذا أنا أشارك من حولى من مظاهر ما يجدون من فرح وبهجة، وأنفرد وحدى بلوعة لا تتقضى وحزن لا تخمد ناره.

يا لقوة النساء! لقد آمنت منذ ذلك الوقت بأنها لا حد لها. يا لمكر النساء! لقد آمنت منذ ذلك الوقت بأنه لا آخر له ولا قرار، يا لقدرة النساء على الكيد وبراعتهم فى التلويح ونهوضهم بأثقل الأعباء وثباتهم لأفدح الخطوب!

لقد أكبرت نفسى، بل أكبرت المرأة فى نفسى حين رأيتنى أضطرب فى هذا التمثيل، وكأنى أضطرب فى الحياة الواقعة لا يأخذنى أحدٌ ولا آخذ نفسى بتصنع أو تكلف أو محاولة

وإنما أن أكذب وأنافق وأصطنع الرياء وأخفى ما أخفى وأظهر ما أظهر فى سهولة ويسر، وكما أتنفس وكما أفتح عيني وأغمضها، وكما أتى ما تدفعنى الغريزة إلى أن أتى به من الحركات! ومع ذلك فبعض ما عرض لى من الخطب وبعض ما ألم بى من الهم كان خليقاً أن يحول بينى وبين الحياة فضلاً عن الحياة الهادئة المطمئنة، فضلاً عن هذه الحياة المضاعفة التى يملؤها الكذب ويجرى فيها الرياء كما يجرى الماء فى الغصن الرطب.

وانتهى النبأ إلى خديجة، كما تنتهى هذه الأنباء إلى الفتيات من بنات الطبقات الوسطى،  
 ظاهراً خفياً، وواضحاً غامضاً، يلقي إليها ويستتر عنها، تنبأ به وترد عنه، فتبتهج له نفسها  
 وتستحي مع ذلك من أن تتحدث فيه، ويمتلئ له قلبها غبطة وسروراً، ويفرض عليها الأدب مع  
 ذلك أن تتكلم الكآبة والحزن كلما ذكر لها، وأن تعرض بوجهها إعراضاً كلما هم أحد أن يشير  
 إليه من قريب أو بعيد، وأن تفر منه فراراً إذا كان الحديث فيه إليها صريحاً جلياً على أن  
 صديقتي وإن تكلفت من ذلك ما يتكلفه أمثالها مع من كان حولها من أهل الدار. قد آثرتني بما  
 كانت تؤثرني به فى كل شىء من هذه الصراحة الساذجة الحلوة! فلم تخف على ما كان يملأ  
 قلبها من فرح وغبطة، وما كان يغشى نفسها من قلق وإشفاق، وما أكثر ما تحدثت إلى وما أكثر  
 ما تحدثت إليها فى أمر الخطبة والزواج، وفيما يحيط بالخطبة والزواج من هذه الأمور التى لا  
 تحصى ولا تستقصى! وما أكثر ما تحدثنا عن خطيبها المهندس وعما نعرف وما لا نعرف من  
 صفاته وأخلاقه وأسرته وثروته! وما أكثر ما أغرقنا فى الأمل ومضينا مع الخيال! وما أكثر ما  
 فصلنا الأمور تفصيلاً، وأطلنا الوقوف عند الدقائق والصغائر من الأمر، فتحدثنا عن الثياب التى  
 ستشترى، وعن الحلوى وعن الأثاث، وأقمنا القصور وأنقنا إقامتها إتقاناً!

وأنا فى هذا كله أجارى صديقتي مجارة يسيرة لا أتكلف فيها ولا أحاول حتى لا تشك  
 لحظة فى أبى أشاركها فى أمر الخطبة والزواج كما كنت أشاركها قديماً فى أمر اللعب، وكما  
 كنت أشاركها إلى أمس فى الدرس والقراءة والاستظهار، بل نحن نتحدث فيما سيكون غداً أو بعد  
 غد حين يتم هذا الأمر، وحين تستقر خديجة فى دارها وتصبح ربة بيت، ونتحدث فى الدرس  
 الذى لا بد من أن نمضى فيه، وفى القراءة التى لا نستطيع أن ننصرف عنها، ونرتب أمرنا على  
 أنى سأنقل مع خديجة إلى حيث تكون، وسأشاركها فى حياتها مهما تكن الظروف. وما الذى  
 يمنع من ذلك وما دخلت هذه الدار إلا لها؛ ما عملت فى هذه الدار إلا معها، وما استطاعت فى  
 يوم من الأيام أن تقبل شركة أو ترضى من أهلها أن يكلفونى بما لا يتصل بها من الأمر، كنت  
 لها طفلة وكنت لها فتاة، ويجب أن أكون لها حين تصبح زوجاً وربة بيت.

نعم! ما أكثر ما تحدثنا فى هذا كله وأنفقنا فيه الساعات أثناء النهار حين كان من حولنا  
 يضطربون فيما يضطرب فيه أهل الدار حين تنتهى لإقامة الأفراح، وأنفقنا فيه الساعات أثناء  
 الليل حين كان كل شىء من حولنا يسكن هذا السكون العميق الذى تمتاز به ليالى الريف! ولكن  
 نفسى فى هذه الساعات كلها لم تكن هادئة ولا مطمئنة، وإنما كانت تائرة جامحة، وكنت كثيراً ما  
 أكف عن الحديث لأفكر فى هذا الشخص الغريب الذى يحتوى نفسين متناقضتين أشد التناقض:

نفسًا تبتهج وأخرى تبتئس، نفسًا تعد وأخرى توعد، نفسًا تمضى فى الحديث بما يسر ويضر وأخرى تمضى فى تدبير ما يحزن وينفع.

وتتقضى الأيام الأولى، ويكون اللقاء ويكون التزاور، ويكون الامتحان لخديجة بالنظر والحديث، ويدنو كل شىء من غايته، ويستحيل الجو إلى الوضوح والجلاء، وتنفس أهل الدارين فى جو كله سرور وغبطة وأمل ورجاء فى غد.

ويدنو أهل الدارين من هذا اليوم الذى تتكشف الأمور فيه عن نفسها، وتصبح الخطبة فيه أمرًا واقعًا يعرفه الناس، وأنا مؤثرة للصمت آخذة فيما يأخذ فيه أهل الدارين من ألوان النشاط. ولكنى أجدنى فى ساعة من ساعات النهار وقد آذنت الشمس أن تتحدر إلى مغربها، وانتشر فى الجو هذا الحزن الضئيل اليسير الذى ينتشر فيه مع الأصيل فيهدئ من نشاط النفوس، ويخفف من وجيب القلوب، ويلقى على الآمال المشرقة بعض الشحوب، ويجرى هذه الأصوات الفرحة نغمة لا تخلو من كآبة، أجدنى فى ساعة من هذه الساعات مقبلة على ربة البيت، حتى إذا بلغت غرفتها دخلت لا أستأذن، ثم أغلقت الباب من دونى لا أستأذن، ثم وقفت واجمة بين يدي سيدتى لا أقول شيئًا، وإنما تتحدر الدموع غزيرة على خدي، وسيدتى تنظر إلى فى غير إنكار وفى غير لوم، كأنها قد فهمت عنى ما أردت أن أقول، وكأنها قد استجابت لدعائى، فهى ترفق بى وتؤكد لى أنى لن أفارق خديجة ولن يحول بينى وبينها حائل، وأنى سأنتقل معها حين تنتقل، وسأسافر معها حين تسافر، وسأقيم معها حين تقيم، وأنى أحسن حظًا منها هي! فهى مضطرة إلى أن تفارق ابنتها، أما أنا فلن أفارق سيدتى وصديقى..

وأنا أسمع هذا الحديث وأفهمه، ولكنه لا يبلغ منى ولا يؤثر فى نفسى، فما لهذا الحديث أقبلت. وما حاجتى إلى أن أسمعه من ربة البيت وقد سمعته ألف مرة ومرة من خديجة! ومتى استطاعت ربة البيت أن تفرق بينى وبين ابنتها فى جد أو لعب! كلا! لم أقبل لأسمع هذا الحديث، بل لم أقبل لأسمع شيئًا، وإنما أقبلت لأقول شيئًا، وقد قلته فى صوت هادئ تبلى هذه الدموع المنحدرة المنهمرة، وكنت أقدر أنه سيقع من هذه المرأة موقع الصاعقة، وأنى قد دخلت هذه الغرفة فى هدوء ولن أخرج منها إلا فى عنف واضطراب، ولكنى قد أتممت ما أردت أن أقول، وانتظرت ثم نظرت، فلم أسمع ولم أر على هذه المرأة اضطرابًا ولا دهشًا ولا شيئًا يشبه الاضطراب والدهش. ثم هممت أن أنصرف خجلة مستخذية، ولكنها وقفنتى بالإشارة وتركتنى لحظة لا تقول لى شيئًا ولا تلقى إلى لحظًا؛ ثم قالت فى صوت عادى متزن: وهل أنبأت خديجة من هذا بشىء؟

قلت وقد أغرقت فى البكاء: كلا يا سيدتي! وما ينبغى لنفسى خديجة الطاهرة البريئة أن يلقى إليها حديث هذا الإثم. ولولا أنى أوثر خديجة وأوثر الأسرة كلها لما أنبأتك بشيء، ولما أفضيت إليك بسر هذه الأسرة البائسة التى تعيش فى بؤسها المظلم فى أقصى الريف.

قالت وقد نهضت إلى متناقلة: لا بأس عليك! فلن يذاع سر أسرتك. ثم ضمتنى إليها وقبلتني وهى تقول: لقد أنقذت ابنتى من شر عظيم.

قلت: نعم يا سيدتى، قد أنقذت خديجة من شر عظيم، ولكنك ترين معى أن لا مقام لى فى هذه الدار منذ الآن! فكل شيء يأمرنى بالتحول عنها، قالت وقد أحسست فى صوتها أنها مشغولة البال منصرفه النفس عما يمكن أن أبسط لها من حديث: وما ذاك؟ قلت مقتصده متعجلة مضمرة أنى إنما أتحدث لأعتذر عما سأتى من الأمر: لم أتعود يا سيدتى أن أخفى على خديجة شيئاً أو أكتم من دونها سرّاً، وما ينبغى بل ما أستطيع أن أبقى معها مستأثرة بعلم ما أعلم طاوية عنها مسعاى عندك وستعلم خديجة من غير أن هذا الأمر الذى بدئ فيه قد أهمل وعدل عنه، وسيكون له فى نفسها أثر حاد، ما أشك فى ذلك ولست آمن نفسى حين أحاول ما يجب على من تسليتها وتعزيتها أن أبوح لها ببعض الحديث والخير كل الخير فى أن أتعجل الرحيل، وما دام الله قد قضى على الشقاء فلا بد من الإذعان لما قضى الله. قالت: وأين تريدان أن تذهبي؟ قلت: لا أدرى! وإنما يجب أن أذهب أولاً، فأما إلى أين فشيء سأسئبينه بعد ذلك!..

ولم يرتفع ضحى الغد حتى كنت بعيدة عن دار المأمور قريبة منها مع ذلك، ألحظ من كذب ما يكون بين هاتين الأسرتين اللتين لم تتصل بينهما الأسباب إلا التقطع، ولم تنشأ بينهما المودة إلا لتستحيل إلى عداً أو شيء يشبه العداً، ولم أجد فى ذلك مشقة ولم أتكلف فيه عناء، وإنما تحولت من دار إلى دار، وقضيت يوماً أو بعض يوم عند هذه المرأة التى تحدثت عنها فى أول هذه القصة، عند زنوبة تلك التى عرفتها فى بيت العمدة وقصصت من حديثها ما قصصت.

أقبلت عليها نحو الظهر فألفيتها قائمة تكيل بعض ما تكيل من الحب، وأمامها نسوة يشترين منها: هذه تشتري القمح، وهذه تشتري الذرة، وهذه تشتري الفول، هذه تشتري نقداً، وهذه تشتري نسيئة، وزنوبة تحتكم فى هذه وتلك صائحة مسرفة فى الحركة، لا يستقر لسانها فى فمها، ولا يستقر وجهها أو لا يستقر ما يختلف عليه من الصور والأشكال، فهى عباسه حيناً وباسمة حيناً، وهى تفعل بعينيها وشفثيها وحاجبيها الأفاعيل وتدل بها على ما قد يعجز الكلام عن أن يدل عليه، وهى تسب هذه جادة وتسب هذه مازحة، وهى تلمح حيناً وتصرح حيناً آخر، وهى تمضى فى ذلك النسوة يسمعن لها راضيات عنها معجبات بها، مشاركات لها فى بعض ما تقول وفى بعض ما تأتى من الحركات وأفراد من شباب المدينة قد اجتمعوا غير بعيد ينظرون ويسمعون ثم يتبادلون فيما بينهم أحاديث فيها البدعة والرضا، وفيها اللذة والإعجاب.

فلما رأته زنوبة لم تتكرنى، ولكنها لم تغل فى الترحيب بى، وإنما نظرت إلى من الرأس إلى القدم، ثم قالت فى صوتها النحيف: ها أنت ذى تقبلين! لقد بعد العهد بك منذ التقينا فى بيت العمدة، ولكنى كنت أنتظرك، وما شككت فى أنك ستأتين إلى هذا البيت وستقومين منى هذا

المقام. قلت: فهل أنبأك الودع بهذا؟ قالت: وما يدريك! لعل الودع قد أنبأني من أمرك بما تعلمين وبما لا تعلمين: اصعدى إلى هذه الغرفة من فوقنا فتخففى من حقيبتك واستريحى، فسأفرغ لك بعد حين، ولا تتعجلى الطعام إن كنت جائعة فإن وقت الغداء لم يحن بعد، وإن كنت أقدر من أمرك أنك لا تحفلين بالوقت فيما يتصل بالطعام، فما أرى إلا أنك تأكلين فى كل وقت، هذا شأنكن أيتها الفتيات تشغلن ببطونكن أكثر مما تشغلن بأى شيء آخر، ومن يدري! لعلكن تشغلن..

فقطعت عليها حديثها بالانصراف عنها والتصعيد فى السلم إلى الغرفة التى دلتنى عليها ولكنها تبعتنى مع ذلك بالسخرية والدعابة، وأخذت تقول: اهريى، اهريى، وجدى فى الهرب، إن أدنيك النقيتين البريئتين لا تستطيعان أن تسمعا لما ألقى من حديث. إنك تخافين من احمرار الوجه واضطرابه، لن تخدعيني وإن استطعت أن تخدعى غيري؛ فإنك لتحبين هذا الحديث وتخوضين فيه وفى شر منه مع أترابك من الفتيات، ولكنكن تتصنعن الحشمة وتتكلفن الحياء، على أنها لم تمض فى هذا اللغو إذا لم تأنس استماعى لها وانصرافى إليها فمضت فما كانت فيه من بيع وكيل ومن دعابة بالوجه واللسان.

وفرغت لى بعد ساعة، فأقبلت على هادئة باسمه، تسألنى عن أمى وأختى وأجيبها عن أسئلتها بما أريد، فتصدق ما تصدق وتكذب وما تكذب ثم قالت: وأنت الآن تريدين العمل، فأين تحبين أن تعملى؟ وكيف تريدين أن تعيشى؟ إن لك من جسمك هذا الجميل، ووجهك هذا الوضىء، ومنظرك هذا الذى يسحر الشبان ويخلب عقول الرجال، ما يكفل لك حياة فيها ثروة وغنى، وفيها نعيم وترف، وفيها لذة ومتاع، وفيها تسلط وسيطرة واستخفاف وعبث بعقول الشباب والشيب، قلت مغضبة: دعيني من هذا الحديث ولست أريد منك شيئاً، وما أقبلت استعينك على شيء، وإنما ألممت بك محيبة لك قبل أن أترك هذه المدينة فإنى عنها مرتحلة، قالت وقد أدارت عينها وأسبغت على وجهها شكلاً مضحكاً تلمؤه السخرية ويشيع فيه التكذيب والاستهزاء، وأرسلت من فمها شهيقاً منكرًا أتبعته بشخير منكر ما أشك فى أن الشباب المجتمعين غير بعيد قد سمعوه فتضاحكوا له، وانتهى إلينا ضحكهم حيث كنا، فزادها مرحاً ونشاطاً، وملأنى خزيًا واستحياء، قالت: لا تراعى لا تراعى، فلن أعرضك للبيع كما كنت أعرض هذه الحبوب أنفاً ولن أكرهك على ما لا تحبين، ولكنى أعرض عليك ما عندي، فأنت تكرهين هذه البضاعة أو تظهرين كرهها الآن! فعندى غير هذه البضاعة، ولكنى ثقى يا ابنتى أنك راجعة إلى فطالبة منى ما ترفضين الآن، لست الأولى ولن تكونى الأخيرة.. تريدين عملاً كله جد كهذا الذى كنت فيه عند المأمور، فلم تركت بيت المأمور؟ ولكن هذا من أسرارك، وإن لم يكن للفتيات أمثالك على أمهاتهن من أمثالى سر، فقد أحب أن أعلم من أمرك جليله وخفيه لأوصى بك عن علم. أخرجت

سارقة؟ أم خرجت لسوء العشرة؟ أم خرجت للكذب؟ أم خرجت لكثرة الصياح؟ أم أغضبت سيدك؟ أم أغضبت سيدتك؟ أم أغضبت بنت المأمور؟ أم أغضبتهم جميعًا؟ وكيف خرجت من هذا البيت في هذا الوقت؟ وهل تعلمين أن في المدينة مأمورين أو بيتين كبيت المأمور؟ وأنت تخرجين في الوقت الذي يستعد فيه البيت للأفراح والليالي الملاح، وتترلين عما كان يحق لك أن تطمعي فيه من العطايا والهبات! فليس من شك في أنهم كانوا سيمنحونك كسوة فاخرة، وليس من شك في أن كثيرًا من النقد كان سيقع إليك من هذا ومن ذلك ومن هذه ومن تلك، فكيف تركت هذا كله؟ أتركته راضية؟ ولماذا؟ أم أكرهت على تركه؟ ولماذا؟ تكلمى! إنى لا أحب الغموض، ولا أطمئن إلى الأسرار، ولا خير في التمتع والإباء والكتمان، فما تخفينه اليوم سأظهر عليه غدًا سأظهر عليه قبل أن تغيب الشمس ولست بزنوبة إن خفيت على أسرار فتاة مثلك لم تبلغ العشرين، وأنا أعلم من أمر هذه المدينة وأسرار أهلها وأخبار الأسر التي تقيم فيها أو تقد عليها أو ترحل عنها ما أعلم. تحدثي! كيف خرجت من بيت المأمور أو كيف أخرجت منه؟

وأمام هذا السيل المنهمر من الحديث، وأمام هذه الأسئلة الملحة وهذا الحرص الشنيع على الاستطلاع واستكشاف الأسرار، لم يسعنى إلا أن أنهض وأعمد إلى حقيبتى فأحملها وأمضى نحو السلم، ولكنى لم أكد أبلغه حتى رددت عنه ردًا، وحتى كانت حقيبتى قد خطفت متى خطفًا، وحتى كانت زنوبة قد أحاطتتى بذراعيها المنكرتين وأخذت تلح على بالضم والتقبيل تهدئنى وتترضانى، وأنا لذلك كارهة أشد الكره، وعلى ذلك ساخطة أشد السخطة، ولو استجبت لنفسى لصحت مستجدة طالبة الغوث؛ فقد أخذت أمقت نفسى وألومها، وألعن هذه اللحظة التى خطر لى فيها أن أوى إلى دار هذه المرأة ريثما أهيبى أمرى بعض الشيء وأدبر لى عملا أمضى فيه..

ولكن زنوبة ملحة على بالرفق والملاطفة، وقد خفت صوتها وعذب حديثها، وأخذت تتحول إلى بأمور ليس بينها وبين ما كنا فيه صلة، كأنها أعرضت عن كل ما م نشأته أن يسوعنى أو يروعنى أو يقلقنى عن هذه الدار التى اقتنعت زنوبة بأن لا بد من أن يطول فيها مقامى أيامًا وأسابيع.

ثم أنظر فإذا نحن قطعنا وقتًا غير قليل فى حديث هادئ فيه الجد وفيه الهزل، وإذا أنا أنس إلى هذه المرأة وأطمئن إلى ما أحس من عطفها، وأنظر فإذا حياتنا قد مضت فى هذه الساعات يسيرة قد زال منها التكلف، وإذا نحن قد تغذينا معًا، وإذا كل واحدة منها قد أخذت تتحدث إلى صاحببتها فى شىء من السذاجة والثقة غريب، وإذا نحن نستحضر آلامنا وأحزاننا، وإذا كل واحدة منا تستكشف فى صاحببتها من وراء هذه الصورة الظاهرة التى يعرفها الناس صورة أخرى خفية من صور البؤس وتمثالا مستترًا من تماثيل الشقاء، وإذا كل واحدة منا ترثى

لصاحبيتها أو تتخذ الرثاء مظهرًا من مظاهر الرثاء لنفسها، وإذا نحن نشترك فى البكاء ونتعاون عليه كما كنا نشترك منذ حين فى الضحك ونستيق إليه، ولم يكد ينصرم النهار ويقبل الليل حتى كانت الألفة بيننا قد انتهت بنا إلى هذا الطور الذى يطمئن فيه الإنسان إلى الإنسان وإن احتفظ بشيء من الاحتياط.. فلم أظهر زنوبة على سري، ولكنى أنبأتها بأن أختى قد قصت فى الغرب، وزعمت لها أنى خرجت من بيت المأمور فى إثر مغاضبة كانت بينى وبين الخدم، ثم لم أظفر بما كنت أرانى أهلا له من الإنصاف، وقد سمعت منى ما أقول وهى إلى التكذيب أقرب منها إلى التصديق، ولكنها تجنبت الجدل والإلحاح فيه، وأظهرت الرثاء لى والعطف على، ووعدتنى بأنها ستجد لى عملاً شريفاً مريحاً إذا كان الغد، وألحت على فى أن أبقى الليل معها وقد فعلت، وق أنفقنا جزءاً غير قليل من الليل فى مثل ما أنفقنا فيه النهار، فلما أصبحنا غابت عن ساعة أو نحو ساعة، ثم عادت إلى متهلهة مشرقة الوجه وهى تقول: لقد وجدت عملاً ما أشك فى أنه سيرضيك، ستعملين حيث كانت تعمل أمك قبل أن ترحلن عن المدينة فى بيت فلان، أتذكرين اسمه؟ أتعرفينه؟ إنه رجل من أصحاب الثراء واليسر، وقد لا تجدين فى داره مثل ما كنت تجدين فى دار المأمور من الترف، ولكنك ستجدين عند سعة ويسراً، ودمائة فى الخلق، وتبسيطاً فى المعاملة؛ فزوجة كريمة النفس، وبناته صالحات لم يفسدهن الذهاب إلى المدارس ولا استقبال المعلمين، فهذا الرجل أمير يضمن بيناته على هذا الفساد، ويرسل أبناءه كلهم إلى القاهرة ليتعلموا فيها وليصيروا فيما بعد موظفين كباراً كالمأمور والقاضى والمهندس.. وإذا أقبل الصيف وعاد هؤلاء الشباب من القاهرة امتلأ البيت فرحاً ومرحاً، وأصبحت أيام الأسرة كلها أعياداً، وازداد حظ الخدم من الرغد والسعة ولين العيش، وأنا كثيرة الاختلاف إلى هذا البيت منذ استقرت هذه الأسرة فيه منذ أعوام وأعوام، وقد رببت أبناءها وبناتها، وقد تبينت منهم واحداً بعينه هو الآن شاب نجيب سيكون بعد قليل موظفاً كبيراً، وهو يعرف لى هذا الحق ويحبنى ويكرمنى ويؤثرنى بالخير والمعروف، قلت: وكيف تبنيته؟

قالت وهى تضحك: أتجهلين هذه العادة؟ لقد أخذته حين كان وليداً فأدخلته من بين ثوبى وبينى، أدخلته من جيبى وأخرجته من تحت ذيلى، فأصبحت كأنى والدته، وأصبح لى عليه حق الأمهات وله على حق الأبناء، ستعملين فى هذا البيت وسترضين، وسأراك كل يوم إذا أصبحت وسأراك إذا أمسيت، فليس بين هذا البيت وبيننا إلا خطوات، وأنا أعمل فيه ساعات من نهار، وقد تحدثت عنك إلى ربة البيت فعرفتك وعرفت أمك وأختك وقبلتك راضية مسرورة، فهلم بنا فقد تركتها على أن أعود بك إليها بعد لحظات، ولست أخفى عليك أنها كرهت بعض الشيء استخدامك بعد أن خرجت من بيت المأمور لما بين الأسرتين من مودة، ولكنها لم تطب نفساً عن

تركك عريضة لما يتعرض له الفتيات من الشر بعد أن عرفت أمك وحمدت عشرتها. فهلم بنا فقد  
تتاح لنا أوقات طوال يكثُر فيها بيننا الحديث.

ونَهضت معها وليس في نفسى ريب فى أنها قد نصحت لى وأخلصت فى النصح والود،  
وفى نفسى بعض الأمل فى أنها ستعيننى يوماً ما على تحقيق ما أريد.

obeyikahna.com

وأقبلت معها على بيت من بيوت الريف هذه التي يظهر فيها الثراء؛ ويحس أهلها سعة العيش، ولكنهم على ذلك لا يأخذون من ترف الحضارة إلا بأيسره وأهونه، محتفظين بما ألفوا من هذه الحياة الريفية التي لا دقة فيها ولا رقة ولا افتتان في إرضاء الذوق، والتي تكره النظام وتتفر منه، وترى في الترتيب والتنسيق تكلفاً وجهداً لا خير فيهما ولا حاجة إليهما، بيت من هذه البيوت التي لا يكاد يدخلها الداخل حتى يحس أن أهلها ميسورون ولكنهم فلاحون كما يقال؛ فالمتاع كثير ولكنه مهمل مضطرب لم ينظم ولم ينسق ولم يهيا، وإنما حمل إلى الدار ثم استقر فيها كما استطاع أن يستقر.

والفرق فيها ملغى أو كالملقى بين حجرات الاستقبال للسيدات وحجرات الاستقبال للسادة، بل بين حجرات الاستقبال وحجرات الطعام، وإنما يستقبل أهل الدار حيث توجد المقاعد والكراسى، ويأكل أهل الدار حيث يتفق لهم أن يأكلوا، إلا أن يطرقهم طارق أو يلهم بهم ضيف فيكون الطعام حيث يكون الاستقبال، ثم يكون نوم الطارق أو الضيف حيث يكون الطعام والاستقبال أيضاً.

فى البيت مقاعد وكراسى، ولكن أهل الدار يؤثرون الجلوس على هذه الحصر والأبسطه قد ألقيت على الأرض إلقاء، فإذا طرق الطارق أو أقبل الضيف عرفت الكراسى والمقاعد أن لها فى البيت منفعة وعملا،

والفرق ملغى أو كالملقى بين من فى الدار من الناس وما فى الدار من الحيوان على اختلافه، فالدجاج مطلق يمضى حيث يشاء ويستقر هنا ثم يستقر هناك حاملاً معه أقداره وآثاره، ولا يحمى منه إلا حجرة أو حجرتان ولا تحميان إلا فى مشقة وتكلف للجهد، وقد لا يكره أهل الدار إذا اشتد القبيظ أن ينفقوا مساءهم تحت السماء قريباً من البقرة أو الجاموسة أو ما إليها، يطلبون النسيم حيث يجدونه، لا يتكلفون فى ذلك ولا يتصنعون، ولا يجدون فى مخالطة الحيوان حرجاً ولا أذى. هى الحياة السهلة اليسيرة الغنية همت أن تتحضر وأن تترف، فأخذت من الحضارة والترف بحظ، ثم لم تستطع أن تتقدم فاكتفت بما أخذت، ووقفت عند حد من الحدود لا تعدوه.

ولم أكد ألقى ربة البيت ومن حولها بناتها وخادمتها يعملن وتعمل معهن، يتحدثن وتشاركهن فى الحديث، حتى أحسست أنى سأجد فى هذه الدار راحة وتعباً وسألنى فيها نعيماً وبؤساً، وقد صدق حسي، فنعمت فى هذه الدار وشقيت: نعمت بهذه السذاجة التي ردتنى إلى شيء يشبه حياتى فى أقصى الريف، وخلطتني بأهل الدار كأنى واحدة منهم وألغت ما بين السادة

والخدم من الفروق أو كادت تلغيه. ولكن أى حياة يموت فيها العقل أو يأخذه شىء كالموت! لم آسف على ما فقدت من الترف، ولعلى لم آسف على ما فقدت من صحبة خديجة؛ فقد استيأست من صحبتها واتخذتها - سواء أردت أم لم أرد - لنفسى خصما، حاربتها وإن زعمت أنى كنت أدافع عنها، وظلمتها وإن زعمت أنى أنقذتها، انتصرت عليها وإن زعمت إنى لم آسف لما فاتتى من صحبتها فلم يكن من ذلك بد! ولكن أى آسف وأى حزن وأى لوعة وحسرة، وأى ندم يذيب القلب ويملاً النفس كآبة ويأساً هذا الذى كنت أجده إذا أصبحت وأمسيت وقضيت الليل والنهار بين عمل باليد أو حديث مع أهل الدار لا متاع فيه للعقل ولا لذة فيه للقلب!!

أين القراءة مع خديجة، وأين القراءة منفردة؟ أين هذه الكتب العربية وهذه الكتب الفرنسية التى كنت أنفق معها أكثر النهار وشطراً من الليل قارئاً أو متحدثاً عما قرأت أو متمنية لاستئناف القراءة؟ لقد تركت هذا كله فى بيت المأمور، وأقبلت إلى بيت لا يقرأ من أهله أحد، إلا رب البيت؛ فإنه يقرأ إذا أصبح، ويقرأ إذا أمسى، وأنا أسمع فى الصباح والسماء، وأكاد أحفظ عنه ما يقرأ، وما يعينى مما يقرأ! إنما هى أوراده وأدعيته، ودلائل الخيرات، وأين أنا من هذا، وأين هذا منى!!

ولقد خرجت من بيت المأمور لم أستصحب كتاباً وما كان لى أن أستصحب كتاباً، وإنما كانت كلها كتب لخديجة، ولقد سألت نفسى ألف مرة ومرة: أين يمكن أن أظفر بهذا الكتاب؟ فليس فى هذه المدينة من مدن الريف كتب تباع إلا هذه التى يعرضها الطوافون فى أيام السوق أو فى أيام الخميس من كل أسبوع، يعرضونها فى السوق ويمرون بها على الدور، وليس لى فيها أرب ولا منفعة، إنما هى قصص لا تعجبنى ولا تروقى وسحر لا أحسنه، وصلوات دينية لا أعرف منها قليلاً ولا كثيراً.

أين هذه الكتب المترفة ذات الطبع الجميل والجلد الأنيق، وهذه التى تأتى من القاهرة والتى كنت أجد اللذة والمتاع حين أخذها فى يدى أو حين أنظر إليها؟ أحيل بينى وبينها آخر الدهر؟ أقضى على أن أرد كما كنت فلاحاً من بنات الريف تتفق نهارها فى هذا العمل الآلى الذى لا يكاد يفرق بينها وبين ما يحيط بها من النبات والحيوان؟ كلا..!

هؤلاء فتیان الأسرة قد أقبلوا من القاهرة، وقد رأيتهم يفرغون حقائبهم، فما أكثر ما رأيتهم يستخرجون منها من الكتب ذات الأحجام المختلفة المتباينة، منها الضخم ومنها النحيف، ومنها متقن الطبع ومنها ما أهمل طبعه إهمالاً، منا ما جلد فى عناية وما ترك على حاله التى خرج بها من المطبعة! ولكن أين منى هذه الكتب؟ وكيف السبيل إلى النظر فيها؟ بل كيف السبيل إلى الوصول إليها؟ هنا حدثت نفسى بما لم تحدثنى به قط، فأنكرت حديثها بعض الشىء، ولكنى لم ألبث أن عرفته وقبلته واطمأننت إليه ثم صممت عليه تصميمًا، وأى بأس فى أن أختلس الكتاب

اختلاسًا فأنظر فيه وقتًا طويلاً أو قصيرًا، ثم أردته إلى مكانه لم يمسه بأس ولم يصبه مكروه؟ أسرقة هذه؟ أإثم هذا الذى أنا مقدمة عليه، إن وجدت إلى الإقدام عليه سبيلاً؟ والله يشهد ما سرقت ولا فكرت فى السرقة، وما اختلست ولا فكرت فى الاختلاس إلا هذه المرة، والله يشهد ما لمت نفسى على ذلك ولا أشفقت عليها من تورط فى الإثم أو تعرض للعقاب، وإنما قضيت أسابيع غريبة فيها مهارة لم أكن أعرف لنفسى منها حظاً، وفيها خوف وإشفاق، وفيها بين ذلك لذات لن أنساها، فكم خدعت أهل الدار، وكم تغفلتهم، وكم اختلست الكتاب من هذه الكتب فأخفيته بينى وبين ثوبى، ثم انحزت به إلى حيث اتخذت لنفسى مأمنًا لا أخشى أن يعثر على فيه، ثم أخذت أقلب صفحاته وألقى عليه نظرات طولاً أو قصارًا تغرينى به أو تصرفنى عنه، وأنا أجد لهذه المخادعة ولهذا الخوف ولهذه القراءة لذة غيرت حياتى تغييرًا وكادت تصرفنى عن هذه الخواطر التى كانت تصاحب نفسى تملأ قلبى وترسم أمام عيني بيت المأمور وبيت المهندس صورة خديجة وصورة هذا الشاب.

نعم! كادت هذه الحياة الجديدة تصرفنى عن هذا كله، لولا حديث سمعته وأنا أطوف، سمعت حديثاً عن المأمور اضطربت له نفسى واضطراباً، ولولا أنى أنفقت جهداً عنيماً لظهر هذا الاضطراب ولسقط من يدي ما كنت أحمله من آنية؛ فقد نقل المأمور من المدينة إلى مدينة أخرى فى أقصى الأرض مما يلي البحر، وكان هو الذى طلب هذا النقل وسعى فيه وتوسل إليه بفلان وفلان، والناس يهمسون بأنه إنما فعل ذلك ليفر بابنته من جواز المهندس الذى كان قد خطبها ثم قطعت الخطبة، والناس يختلفون، فمنهم من يرى أن المهندس هو الذى قطع الخطبة لأشياء بدت له، ومنهم من يزعم أن المأمور هو الذى رفض الخطبة لما تبين من سوء سيرة هذا الشاب.

سمعت هذا واضطربت له، وكظمت عواطفى وأكرهت نفسى على التزام الأمن والهدوء ما اضطرت إلى الخدمة، فلما أتيت لى العزلة أرسلت نفسى على سجيبتها فقضيت ليلة ساهرة حائرة مفكرة محزونة، ولكن الصياح لم يسفر حتى أسفر معه للنفس أمل لا يخول من حزن ولكنه أمل على كل حال، من أجله أفسدت الأمر على خديجة، ومن أجله خرجت من بيت المأمور، ومن أجله نفيت نفسى فى هذه الدار، فقد خلا الجو لى فى المدينة، وأصبح من الممكن أن تتصل الأسباب بينى وبين هذا المهندس الشاب، وأصبح من الممكن بل أصبح مما لا بد منه أن يكون الصراع بينه وبينى، فليعلمن بعد وقت قصير أو طويل أذهب دم هنادى هدراً أم لا يزال على هذه الأرض من هو قادر على أن يظفر له بالثأر ويشفى نفسه بالانتقام؟..

وقضيت بعد ذلك أسابيع حائرة أشد الحيرة، مرتبكة أعظم الارتباك، تضطرب الخواطر فى نفسى وتختلف وتزدحم دون أن أقدر على تنظيمها أو أجد لى منفذاً منها إلى هذا الخاطر الذى كنت أطلبه وألح فى طلبه وأريد أن أطمئن إليه، فلم يكن بد من أن أتصل بخدمة هذا المهندس الشاب، ولم تكن السبيل إلى ذلك مسيرة؛ فأنا عاملة فى هذه الدار لا أجد من أهلها ما يزعجنى عنها أو ما يضطرنى إلى فراقها، وسكينة عاملة عند المهندس، لا تجد منه ما يؤذيها، ولا يجد منها ما يصرفه عنه أو يزهده فيها.

وكننت أجهد نفسى أثناء هذه الأسابيع إجهاداً شديداً متصلاً ألتمس مخرجاً لى من هذه الدار ومخرجاً لسكينة من تلك، وأريد مع ذلك أن أجتنب الشر والإساءة ما وجدت إلى اجتنابهما سبيلاً. وكثيراً ما سمعت سادتى يتحدثون أثناء الغداء أو أثناء العشاء عن مبادلة يسعى فيها أكبر أبناء الدار وكان موظفاً فى إقليم بعيد، وكان يريد ويريد أهله أن ينتقل إلى المدينة التى نحن فيها ليعيش بين أهله سعيداً موفوراً، فكان يسعى فى أن يبادل موظفاً فى المدينة ليأخذ كل منهما مكان صاحبة، وكان التراضى قد تم بينهما بعد أخذ ورد وبعد سعى وإلحاح، وكان السعى متصلاً فى أن ترضى الحكومة عن هذه المبادلة، وكان الأمل يدنو حيناً من هذه الأسرة ويبعد حيناً آخر، وكان رب البيت وربته يحرصان على تحقيق هذا الأمل أشد الحرص ويكثران الحديث فيه، وكانا يتصوران ابنهما وقد عاد إليهما بعد طول الغربة فى أقصى الصعيد، وكانا يهيبان له فى أحاديثهما غرفته وينظمان فيها الأثاث ويذكران ما يجب أن يشتري من المتاع، ويتحدثان بما سيتغير من نظام الدار إذا أقبل هذا الشاب الذى تعلم فى المدارس وتعود حياة الترف والنعيم، والذى يتكلم بالفرنسية ويتأنق فى اللباس، ولا يأكل كما يأكل أهل الدار جالساً على الأرض إلى هذه المائدة المنخفضة، عليها هذه الصينية النحاسية البيضاء فى الأيام العادية، وعليها تلك الصينية الصفراء التى لم تكن توضع حتى يسرع إليها الصبيان والشبان يتكفون قراءة ما كان عليها من بعض النقوش قبل أن يرضى الخبز عليها رصاً فيخفى هذه النقوش إخفاءً.

نعم! ولم يكن يأكل بيديه كما يأكل أهل الدار، وإنما كان يصطنع هذه الأدوات التى يصطنعها المترفون، وكان سيد البيت وسيدته يتحدثان بذلك منكبين له بأطراف ألسنتهما معجبين به أشد الإعجاب فى قلوبهما، وكان الشبان من أبنائهما يسمعون أحاديثهما هذه ويعرفون سخطهما الظاهر وإعجابهما الخفى، فيبسمون صامتين ما أقام أبوهم، فإذا انصرف لشأنه امتلأت أفواههم بالضحك وانطلقت ألسنتهم بالدعابة، وأمهم تسمع لهم وتتنظر إليهم، منكرة عليهم بطرف اللسان معجبة بهم فى أعماق القلب، وكننت أنا أسمع الأحاديث كلها فألهو بها وأطيل التفكير

فيها، فهل من سبيل إلى أن تتم بين سكيئة وبينى مبادلة كهذه التى يراد أن تتم بين ابن هذه الدار المنفى فى أقصى الصعيد وهذا الموظف القبطى المنفى فى أدنى الأرض؟!!

ولكن كيف السبيل إلى تحقيق هذه المبادلة؟ بل كيف السبيل إلى عرضها على سكيئة أ، التحدث إليها فيها؟ بل كيف السبيل إلى تعليل هذه المبادلة لسكيئة؟ وما الذى يزجها عن منزلها هذا الذى تظمن إليه وتسود فيه لا تكاد تدعن لأحد ولا تكاد تلقى من أحد ما يلقاه الخدم من السادة؟ ما الذى يزجها عن هذا المنزل ويحملها على أن تنتقل منه إلى هذه الدار التى لا حظ لها من ترف والتى ليس فيها هذا المهندس الشاب؟ وهب سكيئة حنت واطمأنت إلى مثل هذا العرض السخيف، فكيف يكون تعليل ذلك لسيدها؟ وكيف يكون تعليل ذلك لسادتي؟ كلا! هذه أحلام ليس إليها من سبيل. ومهما أجتهد ومهما أحاول فإن الشر لا ينال إلا بالبشر، والإثم لا يدرك إلا بالإثم، ولن أبلغ هذه الغاية التى أسمو إليها حتى أقتحم فى سبيلها غمرات وأقتزف فى سبيلها آثامًا.

لا بد إذن من بعض الشر، ولا بد من أن أمكر حتى أقصى عن هذه الدار، ومن أن أكيد حتى تقصى سكيئة عن بيت المهندس الشاب. وما أسهل المكر حين تنتهى له النفس! وما أيسر الكيد حين يظمن إليه الضمير! ومتى عجزت المرأة عن أن تبلغ من المكر والكيد ما تريد؟! لن أجد فى تحقيق ما أريد جهدًا ولا مشقة إذا رضيت نفسى ما لا بد من أن ترضاه من الشر، واستباححت ما لم تكن تستيحه من الإساءة والإيذاء.

فأما سكيئة فأمرها ميسور. وإنما هى زيارة للبتانى وإغراء له ببعض المال، واتفاق معه على أن يفسد الأمر على هذه الفتاة ما وسعه ذلك، حتى إذا انتهى منه إلى ما أحب وأخرجت سكيئة من الدار سعى إلى زنوبة من قبل سيده يلتمس خادمًا، ويومئذ..

وأما مخرجى أنا من هذه الدار التى أعمل فيها فليس أيسر منه ولا أهون، لقد دخلت الدار ولم تكن فى حاجة إلى، وإنما قلبنى أهلها رفقًا بى وعطفًا على وإحسانًا إلى ورعاية لعهد أمى. فأنا عندهم ضيف، أستطيع أن أرحل متى شئت، وأستطيع أن أقيم ما أحببت، على أن ظروف الحياة لم تضطرنى إلى أن أتكلف الاستئذان فى الرحيل والالتماس العلل والمعاذير، وإنما قضت بأن أخرج من هذه الدار إخراجًا وأنبذ منها نبدًا. إنى لأذكر قصة ذاك الآن فأبسم لها ابتسامًا ملؤه الحنان والحب. وكثيرًا ما ذكرت هذه القصة قبل اليوم فامتلاً قلبى حبًا لهؤلاء الناس وحنانًا إلى هذه السداجة التى كانوا يعيشون فيها والتى كانت تصور لهم أموالهم كلها فى صورة الجد الذى لا يشبهه حد، والبيت لا يتحدث بها الناس فى هذه الأيام إلا ضحكوا منها ساخرين إن كانوا قساة القلوب، وابتسموا لها عاطفين أن كانوا يقدرون الذكرى ويحبون الحياة التى لا تكلف فيها ولا رياء..!

كان شباب الدار يعكفون أكثر النهار على كتبهم هذه التي أقبلوا بها من القاهرة، يقرءون فيها قراءة متصلة لا يكاد يصرفهم عنها شيء.. وكثيراً ما كانوا يدعون إلى طعامهم فيبيطون، وكثيراً ما كان إبطاؤهم يغيب أباهم ويملؤه بهم إعجاباً ولهم حباً، وكان أهل الدار جميعاً، وربها أولهم، مقتنعين أشد الاقتناع بأن هؤلاء الشباب إنما كانوا يعكفون على هذه الكتب حباً للعلم وإيثاراً للدرس وجداً في التحصيل، وكانوا يتحدثون فيما بينهم بنشاط هؤلاء الشباب الذين لا يكفهم العمل طول العام الدراسي في القاهرة ولكنهم يعملون أثناء الراحة ويحرمون أنفسهم لذة الرياضة والاستمتاع بشيء من النعيم، وإنما هي الكتب إذا أصبحوا، وهي الكتب إذا أمسوا، وهي الكتب إذا آن لهم أن يقيطوا بعد الغداء. ما أشد فتنة العلم لهؤلاء الطلاب الأذكياء الذين يحبونه أشد الحب ويأخذون منه بأعظم الحظ، ويريدون أن يبغوا فيه وأن يظفروا بالشهادات في غير إبطاء، وأن يكونوا موظفين بعد ذلك يتقاضون المرتبات في آخر الشهر ويؤدونها كلها أو بعضها إلى أهلهم!

وكان أهل الدار يجدون في هذه الأحاديث لذة، ويطلقون خيالهم فيها إطلاقاً. وكانت سيدة الدار تتمثل هذا كله وتتوسل في تحقيقه وتعجيله إلى الله بهذا الداء الساذج اليسير الذي تجرى به ألسنة أمثالها من أهل المدن والقرى، وتكثر في الوعد بالندور المختلفة لهذا الشيخ وذلك الولي.

وكان رب الدار لا يكف عن التحدث بنشاط أبنائه وعكوفهم على الكتب أكثر النهار وشطراً من الليل، حتى لقد كان يغيب أصحابه ويملاً قلوبهم حسداً، ثم يتحدث بذلك إلى زوجه فيملاً قلبها خوفاً من الحسد والحاسدين، وكان هذا الرجل الطيب الكريم يجد لذة في أن يختلس الوقت من حين على حين وينتهاز الفرصة التي يغيب فيها أبنائه عن هذه الغرفة التي رصت فيها الكتب رصاً فينسل إلى الغرفة انسلالاً كأنه اللص، ويقف أمام هذه المائدة أو هذه الموائد التي نظمت عليها الكتب تنظيمًا، ويلقى على هذه الأسفار نظرات ملؤها الإكبار والإجلال، وقد يمد يده في تحفظ واحتياط إليه هذه الكتب فيمسها مساً رقيقاً ويمسحها مسحاً يسيراً، كأنه يتبرك بها ويلتمس عندها ما يلتمسه عند الأولياء والقديسين إذا لقيم أحياء أو زرا قبورهم أمواتاً.

وقد يدفعه حب هذه الكتب وكلفه بها وحاجته الشديدة إلى الاستطلاع إلى شيء من الجراءة، فيأخذ كتاباً منها وينظر فيه ليحفظ عنوانه وليتحدث به إلى أصحابه إن خرج إليهم، أو ليقراً فيه سطرًا أو أسطرًا يفهمها أو لا يفهمها، وهو يؤثر فيما بينه وبين نفسه ألا يفهمها، فذلك أدنى إلى الإعجاب وأشد إمعانًا فيما ينبغي للعلم من الغرابة والارتفاع عن عقول العامة والجهلاء، وهو أدنى إلى ما ينبغي من الإعجاب بهؤلاء الشبان الناشئين الذين يعرفون ويفهمون ويسمعون ما لا يعرف أبائهم ولا يفهمون ولا يسمعون، وكثيراً ما كان يظهر هذا الرجل ميلاً فيه كثير من

الحياء والتردد إلى أن يحدثه أبنائه ببعض ما يقرعون ويعطوه شيئاً من هذه الكنوز التي يملأون بها قلوبهم وعقولهم إذا أصبحوا وإذا أمسوا، ولكنه كان شقياً دائماً لا يكاد يلمح لأبنائه ببعض ذلك حتى يجد منهم نفوراً وازوراراً، فيضطر إلى الصمت والرضا بما هو فيه من جهل وحرمان، وكثيراً ما كان يتحدث إلى زوجه ببخل العلماء وضمنهم بالعلم وإيثارهم أنفسهم بلذاته وثمراته، يتحدث بذلك متألماً محزوناً أو ثائراً مغضباً فتعزیه زوجه وتهدهه وتزعم له صادقة أو متكلفة أن العلماء إنما يبخلون بالعلم على غير أهله إكراماً للعلم وإشفاقاً على الجهلاء من أن يشق عليهم ما يسمعون فيقبل منها ذلك أو يجادلها فيه.

وكذلك كان هؤلاء الشبان وكتيبهم بمكان الإعجاب والتقدير من هذه الأسرة الساذجة، ولكن الدار اضطربت ذات يوم أشد الاضطراب، وفسد فيها أو كاد يفسد كل شيء، وقضى أهلها يوماً منغصاً كله شر ويأس وأمل خائب وظن كاذب، وكنت أنا مصدر هذا البلاء، فكفرت بخروجي من الدار عما جنيت من سيئة، وما كان أسعدني بهذا الخروج!..

ولم أكن أقل من صاحب البيت كلفاً بالانسلال إلى غرفة الكتب والنظر إليها والقراءة فيها، بل كنت كما قدمت أتجاوز حظ صاحب البيت من هذا كله فأختلس الكتب اختلاساً وأخفيها بيني وبين ثوبى وأخلو إليها فى حيث لا أرى ساعات تقصر أو تطول، ولكنها كانت تمتلئ دائماً باللذة والمتاع. وكنت قد لاحظت كتاباً دميم المنظر قبيح الشكل ردىء الطبع والورق، يعكف عليه هؤلاء الشبان عكوفاً متصلاً، يستبقون إليه استباقاً ويتنافسون فيه تنافساً ويشتد اختصاصهم فيه، ثم ينتهون إلى أن يتفقوا على أن يتداولوه فيما بينهم لكل واحد منهم وقت معلوم. فدفعت إلى أن أعرف هذا الكتاب وأتبين ما يخفيه شكله الدميم وطبعه الرديء وورقه الحقير وجلده المبتذل البالى، من هذا السحر الذى خلب هؤلاء الشباب ودفعمهم دفعاً إلى التهالك وعليه التنافس فيه. وكثيراً ما التمست هذا الكتاب فلم أجده قريب المنال بين هذه الكتب المرصوفة المعروضة، فتبينت أن هؤلاء الشبان لا يكادون يفرغون من المنظر فيه حتى يخفون إخفاءً، فلم يزدنى ذلك إلا كلفاً به وتتبعاً له وإلحاحاً فى البحث عنه، وأعلم ذات يوم أن هؤلاء الشبان مدعون إلى الغداء، وأن الغرفة ستخلو لى ساعات من نهار، وأنى سأستطيع أن أبحث عن هذا الكتاب، وقد أقسمت لأجدنه لأنظرن فيه ولأقضين معه أطول ما أستطيع أن أقضى معه من الوقت.

وقد انصرف الشبان إلى وليمتهم، وتخففت من أقال ما كان على من عمل، فانسلت مسرعة رشيقة سريعة النشاط إلى الغرفة، ومضيت فى البحث غير قليل، وإذا أنا أظفر بما كنت أبتغي، فيا للبهجة ويا للغبطة، ويا للسعادة ويا للرضا، هذا الكتاب بين يدي دميم الصورة قبيح الشكل حقير الورق ردىء الطبع، ولكن اسمه " ألف ليلة وليلة" وأنا أقرأ وأنا أمضى فى القراءة وأنا أنسى نفسى وأنسى مكانى. ولكن ماذا أسمع وماذا أرى؟ هذا باب الغرفة يفتح فى غير

احتياط، وهذا رب الدار يدخل! فقد كان مثلى ينتظر أن تخلو له الغرفة ليقف من هذه الكتب موقف الإكبار، ولينظر إليها نظرة التقديس، وليمد إليها يده ملاطفًا مداعبًا، ثم ليقرأ من أسمائها وسطورها ما يبهر به أصحابه إذا خرج إليهم آخر النهار، ولكنه يرانى أنظر فى كتاب، وفى كتاب لم يتعود أن يراه! فهو يسألنى ماذا أصنع، وما أنا وهذه الكتب؟! وأحاول أنا أن أخفى الكتاب الذى كنت أنظر فيه، ولكنه قد أسرع فأخذه من يدي، ثم زجرنى زجرًا عنيفًا وطردنى من الغرفة طردًا،

على أنه لم يطل المقام فى هذه الغرفة وإنما خرج منها بعد قليل ثائرًا ساخطًا، وأقبل على زوجه وفى يده هذا الكتاب فألقاه فى وجهها إلقاءً، واندفع فى غضب لا حد له وفى شتم لا ينتهى ساخطًا على زوجه المسكينة وعلى أبنائه البائسين، صابًا عليهم نذرًا متصلة بالكوارث والأحداث، معلنًا إليها فى غيظ عنيف مرة وفى حزن أليم مرة أخرى، خيبة أمله فى هؤلاء الأبناء الذين كان يظنهم محبين للعلم مؤثرين له متهاكين عليه، فإذا هم أصحاب عبث ولهو ومجون، وإذا هم ينفقون وقتهم فى قراءة هذا الهديان ومن يدري! لعلمهم ينفقون وقتهم فى هذا أثناء إقامتهم فى القاهرة على حين يظن أنهم يجدون ويعلمون يحصلون العلم، وهو إذن إنما يجد ويكد وينفق حياته وماله ليمضى أبناؤه فى هذا السخف وفى هذا اللهو الآثم القبيح، وهم لا يضيعون وقتهم وجهدهم وجد أبيهم وكده وماله وأمله فحسب، ولكنهم يخربون البيت أبيهم بأيديهم كأنهم يجهلون فى أن هذا الكتاب لم يدخل بيتًا إلا خربه تخريبًا.

ثم يعود الرجل إلى غرفة الكتب فيقلب كل ما فيها تقليبًا وما يزال يبحث حتى يظفر بأجزاء الكتاب كلها، ثم يعود بها منتصرًا ساخطًا معًا، ثم يمزقها تمزيقًا، ولا يطمئن حتى يشعل فيها النار! وقد نغص يوم الأسرة كله فلم يذق الرجل ولا أهل الدار فيه طعامًا.

وعاد الفتيان آخر النهار، فلا تسل عما سمعوا ولا عما رأوا، ولا عن صمتهم حين صمتوا ولا عن قولهم حين قالوا، ولكن النتيجة الأولى والأخيرة فيما أظن لهذا كله هى أنى طردت من الدار طردًا. ورجعت إلى بيت زنوبة وإلى غرفتها، فقضيت فيها أسابيع انتظر ما يجرى به القضاء، وما تنتهى إليه حيلة البستانى الذى ضوعف له الأجر.

"ستعلمين إن كان الغد يا آمنة، وستعلمين عملا يرضيك كما لم يرضك عمل من قبله قط. لا تذكرى بيت الأمور، ولا تذكرى بيت فلان هذا الذى دفعتك الحماقة فيه إلى هذا الذنب العظيم ستعلمين عملا مريحًا فيه مال كثير، ونعيم كثير، متاع كثير، ستعلمين.. ستعلمين

وستسعدين. ليتنى كنت مكانك، ليت سنى تعود إلى حيث أنت من العمر. ستعملين وستسعدين..!"

قالت ذلك وهى مضطربة أشد الاضطراب مبتهجة أشد الابتهاج يدفعها الفرح والمرح إلى أن تأتى حركات مختلفة فيها الرقص والقفز، وفيها الجد والهزل، وفيها الدعابة التى ليس بعدها دعابة والمجون الذى ليس بعده مجون، حركات على الوجه، وحركات باليدين، وحركات فى الجسم كله مجتمعاً وفى أعضائه متفرقة. حركات هى إلى الجنون والاختلاط أدنى منها إلى الفرح المعتدل الذى يصدر عن نفس مرحة وعقل متزن، ولم تكتف زنوبة باضطرابها هي، وإنما انقضت على انقضاضاً، فقبلتين وأنهضتتى وراقصتتى ودارت بى حول الغرفة دورائياً متصلاً سريعاً حتى انتهت بى وبنفسها إلى السقوط، كل ذلك وهى مندفعة فى حركاتها وأحاديثها، لا تمكننى من أن أقول كلمة أو أنطق بحرف أو آتى من الحركات غير ما تريد قد استحالت إلى جنية وأصبحت الغرفة ميداناً لاضطرابها المختلط الذى يقف ولم يهدأ إلا حين أسقطها الدوار وأسقطنى معها على الأرض وحين أفاقت منه بعد قليل..

هنالك استطاعت أن تتكلم كلام العاقلة، واستطعت أن أسمع لها وأن أفهم عنها، فعلمت أن المهندس فى حاجة إلى خادم، وأنه قد أرسل يتقدم إليها فى أن تلتمس له هذه الخادم، وأنه يمنحها على ذلك أجرًا يختلف باختلاف الخادم التى تقودها إليه مع الصباح إذا كان الغد. وهى مبتهجة لى وهى مبتهجة لنفسها؛ فما أكثر ما قدمت لهذا الشاب من خدم! وما أكثر ما تقاضت منه أجر ما قدمت! ولكنها لم تقدم إليه يوماً من الأيام فتاة مثلى لها مثل ما لى من جمال الوجه، واعتدال القد، ورجاحة العقل، ومهارة اليد، والعلم بحاجات الشبان المترفين، سيكون أجرها مضاعفاً، أما أنا فسأسعد السعادة كلها فى هذا البيت الأنيق الجميل، وفى خدمة هذا الشاب المترف الغنى الوحيد. لن تأمرنى سيدة الدار. ولن ينازعنى خدم الدار. سأكون وحدى صاحبة السلطان المطلق على بيت هذا الشاب وعلى قلبه إن أحببت! فقلبه مباح لمن يحسن الوصول إليه والاستيلاء عليه.

قالت ذلك وأرسلت شهيقها المرتفع، وشخيرها المنكر، وضحكها العالى، ثم انقضت على وضممتى إليها ضمًا عنيفاً وهى تقول: "إنى لأعبطك وأحسدك معاً أعبطك لأنى أحبك، أحسدك لأنى أود لو أكون مكانك وأظفر بالسلطان على ما يحتوى هذا البيت من نعيم"

وأنا أسمع منها وأبسم لها وأرفق بها، فلا أنبئها بأنى قد دبرت لهذا اليوم تدبيراً، وأعددت له إعداداً، واشتريته بالمال، وانتظرت مقدمة واثقة بأنه سيقدم، مطمئنة إلى أنه سيحين. ولم أظهرها على هذا كله، وأمرى كله فى حاجة إلى الحزم وفى حاجة إلى المكر والكيد.

نعم! لم أنبئها من هذا كله بشيء، ولم أنبئها حين أصبحنا بأنى لم أذق النوم لحظة فى هذه الليلة الطويلة التى فرقت بين نفسين، وإنما قضيت الليل كله يقظة، أفكر فى أمس البعيد وأفكر فى اليوم، وأفكر فى غد وفيما بعد غد، على حين كانت تحلم بما باعت وما ستبيع من حب، وبما أخذت وما ستأخذ من أجر، وبما ذاقت وما بقى لها أن تذوق من لهو، وعلى حين كانت أحلامها هذه المختلفة تدعو جسمها إلى أن يأتى حركات مختلفة ثلاثمها، وتدعو لسانها إلى أن ينطلق بجمل متقطعة مختلفة توافقها، وكنت أرى ذلك منها وأسمعه، فأرثى لها وأرثى لنفسى أيضاً: أرثى لها فى حياتها هذه الصغيرة الحفيرة التى خلت من كل حسن دقيق، أو شعور عنيف، أو تفكير عميق، وأرثى لنفسى من حياتى هذه المضطربة التى يملؤها الحس والشعور والتفكير، وتفعمها الأحداث والخطوب.

نعم! قضيت الليل كله مؤرقة، ليس من شك فى أن كان طويلاً، وليس من شك فى أنه كان ثقيلًا لو فرغت له، ولكنى شغلت عن الليل ببنات الليل، شغلت عن طول الليل وثقله بصورتك أيتها الأخت العزيزة البائسة هذه التى لم تكد تحسن أنى خلوت إلى نفسى حتى تراءت لى ثم دنت إلى ثم استقرت منى غير بعيد، ثم أخذت تتحدث إلى نفسى حديثاً أعقله ولا أسمعه، وأجد له فى قلبى وقعاً لاذعاً حلواً معاً، صورتك هذه التى رأيتها كما كنت أراها حين ذهبنا إلى الغرب، وكما كنت أراها فى بيت العمدة قائمة تحت السماء ذاهلة لا تحس شيئاً ولا تلتفت إلى شيء، وكما كنت أراها حين كنت أنبهك إلى نفسك وإلى مكانى منك، وحين كنت أتحدث إليك وأستمع لك، وحين كنت أواسيك وأعزيك وأجتهد فى أن أفيض عليك السكينة وأشيع فى قلبك الأمن والهدوء.

ها أنت ذى تسعين إلى وتجلسين إلى جانبى، وهذا رأسك قد مال حتى استقر على كتفى وهذه يدي تلاطف خدك وتبللها دموعك المنهمرة الصامته، وها أنا ذى أخلى بينك وبين البكاء حيناً وأمضى معك فيه، ثم أثوب إلى الهدوء وأردك إليه، وهذه يدي تلاطف شعرك الغزير ملاطفة متصلة حتى يملكك الأمن ويوشك النوم أن يضم عليك ذراعيه، ولكنك تنهضين وتذهبين. ثم تعودين لى بعد قليل واجمة ثم مروعة، وأنا أستقبلك رفيقة بك مهدئة لك، وهذه الأشباح الحمراء تتراءى لنا كما كانت تتراءى لنا فى بيت العمدة قبل أن نأخذ فى هذا السفر الأثيم، ولكنك لا تكادين ترين هذه الأشباح الحمراء حتى تهيمى وتنهضى إليها، وتستحيلى إلى شبح أحمر بين هذه الأشباح الحمراء! وها أنتن أولاء تظفن بى وتضطربن من حولى وتستبقن إلى أذنى تردن أن تلقين فيهما ألوان الحديث، وها أنا ذى مروعة مفاجعة، أرى الجنون وأشفق منه، أهم أن أصبح، وأذكر مكانى فى دارنا تلك فى أقصى الريف نحو الغرب أثناء العلة، وها أنا

ذى أرى الينبوع الكريه يتفجر منه ذلك الدم الغزير، وها أنا ذى أنهض خائفة مولهة، أريد أن أفر من هذه الغرفة ولكن إلى أين؟!

نعم! إلى أين والليل ساكن جاثم؟ وأين تستطيع فتاة مثلى أن تذهب والليل ساكن جاثم؟ لأوقظن هذه المرأة التى تختلف عليها الأحلام وتتعم بلذة النوم فى ناحية من نواحي هذه الغرفة، لأوقظها ولأقضي معها بقية الليل فى الحديث.. ولكنى لا أكاد أسعى إليها حتى تأخذنى الأشباح الحمراء من كل مكان، وحتى تسعى إلى أختى وعلى وجهها ابتسامة شاحبة حزينة مستعطفة، وهى تلقى فى نفى هذه الكلمات التى تقع منها مواقع السهام المحرقة، لا توقظها إنها تخفيها، وإن يقظتها تطردنا، ماذا تخافين منا؟ لقد طالما أفتنا وأفناك، أنفسيتنا إلى هذا الحد؟! كلا! كلا! لم أنسكن ولن أنساكن، ولن أدودكن عن نفسى، ولن أوقظ هذه المرأة التى تخفيكن، أقمن معى، أطفن بى، تحدثن إلى، فمن يدري! لعلى أن أكون فى يوم من الأيام واحدة منكن، لعلى أن أكتسى هذا الرداء الأحمر القانى الذى تكتسبونه والذى يدعونى إليكن ويخيفنى منكن..!

وهذا صوتك أيها الطائر العزيز يحمله إلى الهواء من بعيد فيبلغنى نحيلاً ضئيلاً ولكنه على ذلك يشيع فى سكون الليل كما يشيع الضوء فى الجو..

وهذا صوتك أيها الطائر العزيز منى شيئاً فشيئاً، فيملؤنى أمناً ودعة وهدوءاً، وحرزاً معاً، إنه يردنى إلى اليقظة الخالصة التى تشعر بنفسها وتفكر فى نفسها وتذكر ما مضى على علم به وتقدير له، وتستقبل ما سيأتى فى روية وبصيرة واستعداد للاحتمال..

نعم! إنى صوتك ليملاً أذنى، وأنه ليملاً قلبى، وأنه ليغمر نفسى، وإنى أفهم عنه ما يريد، إنى لأذكر أختى ومصرعها وإنى لأعرف من دفعها إلى الموت، كما أعرف من أذاقها الموت، وإنى لأعلم حق العلم أنى ساعية إذا كان الغد إلى بيت هذا المهندس فقيمة فيه حيث كانت أختى، فناهضة بما كانت تنهض به أختى من العمل، فمنتوية بعد إلى شيء آخر غير الذى انتهت إليه أختى فى ذلك الفضاء العريض..

لقد سمعت منك أيها الطائر العزيز، وفهمت عنك، وهذا عقلى يثوب إلي، وهذه قوتى ترد علي، وها أنا ذى أنتظر الصبح لأسعى إلى هذا المهندس وإن قلبى لمظلم أشد الإظلام، وإن وجهى لمبتسم أجمل الابتسام.

وأقبل سيدي الجديد على مبتسماً راضياً يحدق النظر في وجهي تحديقاً طويلاً، ثم يفصل النظر إلى جسمي كله تفصيلاً، كأنه يمتحن متاعاً يريد أن يشتريه، ولو قد استطاع لنهض إلى فاخترني ببديه اختباراً وتعرفني باللمس، ولكنه كان فيما يظهر قد احتفظ لنفسه ببقية من الحياء، فاكتفى بهذه النظرات المتصلة الطوال التي تجرد المرأة من ثيابها تجريداً، والتي كنت ألقاها مضطربة لها أشد الاضطراب نائرة لها أشد الثورة.

ولكني كنت أتمالك ما وسعني الجهد وضبط النفس، حتى لا يرى على اضطراباً ولا ثورة ولا شيئاً ينكره، وهو يسألني عن اسمي، وعن أهلي وعن أمري كله، فألفق له من ذلك ما ألقف وأزين له من ذلك ما أزين، وهو يسمع مني مصدقاً لي أو غير حافل بما يسمع، إنما يريد أن يعرف صوتي ووقع حديثي، ثم هو يأمرني أن أقبل وأن أدبر وأن أدنو وأن أبعد، وأن أنحرف إلى يمين، وأن أنحرف إلى شمال، وأنا أستجيب لكل ما يدعوني إليه، وقد هدأ اضطرابي وسكنت نفسي، وعاودني صوابي، وأنا أتحدث إلى نفسي بأن هذا الفتى يعرف حقاً كيف يكون شراء الرقيق..!

ثم يقبل آخر الليل ولم يكن يقدر أني سألقاه قائمة باسمه. أقبل إلى في ظلمة الليل يسعى كأنه الحية أو كأنه اللص. ولكنه لم يكذب يبلغ الباب الغرفة ويتبين شخصي ماثلاً في وسطها وعلى وجهه ابتسامة شاحبة كأنها ابتسامة الأشباح، حتى أخذه شيء من الذعر، فتراجع خطوات ثم قال في صوت أبيض جعل يأخذ لونه الطبيعي قليلاً قليلاً: ماذا؟ ألا تزالين ساهرة إلى الآن؟ أتعلمين أين أنت من الليل؟ قلت: لقد جاوزت ثلثيه، وما كان ينبغي لي أن أنام قبل أن ينام سيدي، فما يدريني! لعله يحتاج إلى شيء

قال وقد عاد إليه ثباته وهدوء نفسه، واسترد صوته شيئاً من قحته المألوفة ودعابته البغيضة: ما رأيت قبلك خادماً مثلك تحسن العناية بسيدها وتسهر منتظرة لمقدمه إلى آخر الليل لقد كنت أحسبك نائمة كما تعودت أن أرى من سبقك من خدمتي، وكنت أقدر أني سأجد في إيقاظك بعض الجهد، فلست أدري ما بال نوم الخدم يتقل حتى كأنهم أموات! قلت: فقد أرحمت سيدي من هذا الجهد، وانتظرت مقدمه كما تعودت منذ اصطنعت خدمة المترفين الذين لا يحبون إنفاق الليل في دورهم؛ فليأمر سيدي بما يريد. قال وهو يضحك ضحكاً سمجاً وقد مد إلى يداً وددت لو استطعت قطعها، ولكن تراجعحت حتى لا تبغني: فإن سيديك يأمرك أن تتبعيه. ثم انحدر إلى غرفته ومضيت في أثره..

وصدق المسكين أنى كنت أنتظره، ولو قد نفذ إلى قلبى واستمع إلى أحاديث نفسى لعرف  
أنى لم أكن أرقه فى انتظاره، وإنما كنت أسامر أشباحًا حمراء لو رآها لملئ قلبه رعبًا ولولى منها  
فرارًا. ولكن لم ير إلا إياي، ولم يفكر إلا فى وما له وللأشباح الحمراء!

obeyikamal.com

وعدت إلى غرفتي بعد ساعة، راضية عن نفسي كل الرضا، مطمئنة إلى قوتي كل الاطمئنان، فقد بلوت الخصم ولقيت العدو في ميدانه الذي اختاره هو، وكانت بيني وبينه مقدمات النضال، فلم أضعف له، ولم أشفق منه، وإنما ثبت له ثباتاً، ثم انصرفت عنه وقد علقته بين السخط والرضا، ووقفته بين اليأس والأمل، لم أجد في شيء من هذا كبير مشقة، ولم أحتمل في شيء من هذا عظيم عناء، وإنما هو الابتسام المطمع المغرى، والاحتشام الذي يفيل العزم ويثبط الهمم، ويبسط سلطان الحياء على النفس فإذا هي ترتد بعد امتدادها، وعلى الوجه فإذا هو يظلم بعد إشراقه.

وقد كنت أقدر أن المعركة الأولى ستكون عنيفة يملؤها الهول، ويحرق بها الخطر، وتنتهي إلى الفصول فيما يكون بيني وبين هذا الشاب فإما ضعف واستئثار، وإما قوة وانتصار، يتبعهما الطرد العنيف من هذه الدار. ولكنى ملكت أمرى وملك هو من أمر نفسه ما جعل المعركة الأولى مقدمة لا خاتمة؛ وما أجل الفصل في هذه الخصومة إلى أجل ظنه قريباً ورأيته بعيداً. وقد انصرفت عنه بعد أن أعنته على بعض أمره وهيات له ما يحتاج إليه، وتركته كاسف البال يظهر الرضا والابتهاج، وهو يقول: لا بأس! إنك في حاجة إلى التربية والتمرين.

ولم أكد أثوب إلى غرفتي وأغلق بابها من دوني إغلاقاً محكماً حتى تراءت لى أختى وهذه الظلال التي تراقفها، كأنما كن ينتظرني ليعلمن علمى وليسمعن نبأ ما أبليت مع الخصم من بلاء، ولقد هممت أن أتحدث إليهن، وأقص عليهن ما سمعت وما رأيت، وما علمت وما أبيت، ولكن ماذا؟ أنهن ينظرن إلى نظراً قصيراً، ثم يلمع فى وجوههن الشاحبة ابتساماً الرضا، ثم يستخفين استخفاء كأنما ابتلعهن الظلام ابتلاعاً. وكنت أظن أنى سأنتظر معهن مطلع الفجر، سامرة كما كنت أسمر منذ حين قبل أن يرقى إلى سيدى كأنه اللص، ولكنى ألتسمهن من حولى فلا أرى لهن محضراً ولا مظهراً، وألتسمهن فى نفسى فلا أظفر منهن بشيء، لقد غبن عن عيني وغبن عن نفسى، وكأنهن أمرن الذكرى أن تتبعهن وتمضى إلى حيث مضين، فأنا أريد أن أكر فلا أستطيع، وأريد أن أفكر فلا أجد سبيلاً إلى التفكير، وأنا آوى إلى مضجعى وقد كنت أزمعت ألا آوى إليه، ولكن القوة البدنية حدًا، ولكن للتعب سلطاناً هو باسطه، وغاية هو بالغها، ولقد قضيت ليلة لم أدق فيها النوم، وهذه الليلة الثانية قد انقضت أكثرها، وكادت توالى نجمها تتغور، فلا بد إذن من بعض الراحة سواء أرضيت أم كرهت..

ومن أجل هذا فارقتنى أيتها الأخت العزيزة، وفارقتنى معك هذه الظلال الحمراء إنكن لرفيقات بى شفيقات على وما يمنعكن من ذلك وأنا عندما تردن لم أهن ولم أضعف، ولم أنهزم

لهذا العدو الماكر القوى! ليت شعري! أكننت ترفقن بى، وتشفقن على، وتتصرفن عنى وتخليين  
بينى وبين النوم، لو أنى خالفت عن أمركن واستجبت أو أظهرت الاستجابة لذلك الدعاء البغيض  
الذى كان يرسله إلى سيدى بالعين واليد واللسان!؟

obeyikahna.com

على أن الأمر بين سيدي وبينى لم يلبث أن تعسر بعد يسر، وتعد بعد سهولة، واشتد بعد لين، فلكل شىء أجل، وللصبر أمد ينتهى إليه، وللمطاولة غاية تقف عندها، والمياسرة خير إلا أن تستحيل إلى ضعف وإذعان، وما ينبغى لسيدي أن يظهر مظهر الضعيف المذعن لخدام مثلى ليس له حول ولا طول، وهى لا تأوى إلى ركن شديد، ولا تعنز بقوة تحميها من بأسه وتعصمها من سلطانه، وإنما هى كلمة منه تبقىها فى داره عزيزة مكرمة أو تخرجها من هذه الدار ذليلة مشردة، وقد علق سيدي هذه الكلمة فى طرف لسانه أياماً وأياماً، يهم أن يرسلها حتى إذا بلغت شفثيه وكادت تتجاوزهما إلى الهواء الذى يحملها إلى ردت إلى مكانها واستقرت فى موضعها من طرف اللسان استقراراً وأطبقت شفثاه من دونها إطباقاً.

وؤدت لى أسباب البقاء فى هذه الدار يوماً أو بعض يوم ريثما يخرج سيدي لبعض شأنه، ثم يعود فيدعونى إلى ما كان يدعونى إليه فى هذا الإلحاح المتصل، المضحك المحزن، الذى يفسد على الرجل أمره ويظهره قوياً كأنه الليث وضعيفاً كأنه الفأر عزيزاً كأنه السيد وذليلاً كأنه العبد، ويطلق لسانه بما شاء له الهذيان من هذه الكلمات الجوفاء التى يملؤها الاستعطاف حين تكون نذيراً ووعيداً، ويملؤها المكر والكيد حين تكون استعطافاً واسترضاء، وتصور دائماً نقيض معانيها الظاهرة، وتعتبر دائماً عما لم يرد صاحبها إليه، ويملاً نظراته بهذه الشرر المحرق حيناً، ثم بهذا الانكسار الدليل حيناً آخر، ويجعله يدور حول غايته التى يشتهيها وأمنيته التى يبتغيها، كما يدور العابد حول الصنم، وكما يدور اللص حول البيت يبتغى ثغرة ينسل منها إليه!

نعم! كذلك كنت ألقى سيدي مع الصبح باسمه مشرقة الوجه، أحمل إليه قدح الشاى وبعض الفاكهة قبل أن يثب من سريره، وقد كان سيدي يحيا حياة الإنجليز، فلا أكاد أدخل عليه حتى ترتفع إلى عيناه وقد ملأتهما عواطف شديدة الاختلاف ومعان عظيمة التناقض، فيها الحب وفيها البغض، فيها الأمل وفيها البأس، فيها الوعيد وفيها الخوف، فيها الشهوة وفيها الزهد، فيها القرب وفيها البعد. وأنا أرى هذا وأحسه وأفهمه، ولكن، يا لقوة النساء! إنى لأقبل عليه بالشاى والفاكهة والتحية كأنى لا أرى شيئاً، ولا أحس شيئاً، ولا أفهم شيئاً، ثم أنصرف عنه وفى نفسى ما فيها من الرضا، وفى قلبى ما فيه من الإشفاق؛ فقد كنت راضية عن نفسى وساخطة عليها، وقد كنت شامته فى سيدي ومشفقة عليه، قد كنت أرضى لنفسى ما أنا فيه من الإطماع والامتناع، ومن القرب والبعد، لأعذب هذا الشاب الذى قتل أختي، وكنت أنكر على نفسى هذا كله، وأراه لعباً بالنار، وتكلفاً للشر، وإمعاناً فى الإثم، وقد كنت أرى أنى قد خلقت لنفسى جوّاً من الرذيلة أعيش فيه إذا أصبحت، وأعيش فيه إذا أمسيت، وأنفس هواء المنكر، وأبعث فيه سمّاً زعافاً،

فما هذا الكيد الذى أكيدته؟ وما هذا المكر الذى أمكره؟ وما هذا التفكير الآثم الذى أملاً به رأسى وقلبي؟! أصبح فأفكر فى هذا الشاب لأغويه وأضنيه وأنغص عليه يومه، وأمسى فأفكر فى هذا الشاب لأدنيه وأقصيه وأؤرق عليه ليله؛ وأنا فيما بين ذلك لا أنفك أفكر فيه، عاطفة مرة، وصادفة مرة أخرى، لينة حيناً وقاسية حيناً آخر.

هذا كثير! وأكثر منه أن تفرغ له فتاة كانت تستطيع أن تفرغ لما هو أظهر منه وأتقى، وأكثر من هذا وذاك أن يستسلم هذا الشاب لما يغمره من ضعف، ويتورط فيما يبث حوله من شباك، ويتعلق بفتاة مهما تكن فهى ليست شيئاً، والفتيات غيرها كثير يستطيع أن يلتصقهن متى شاء وكيف شاء، وأى شىء أيسر من أن يرسل بستانيه إلى زنوبة أو إلى امرأة أخرى من أشباه زنوبة، فلا ينقضى اليوم حتى تكون عند فتاة أو فتيات يختار من بينهن من يشاء! فما أكثر هؤلاء الفتيات اللاتي يلتصقن العمل فى المدينة قد نشأن فيها أو انحدرن إليها من الريف كما انحدرت أنا منذ أعوام؛ ولكن نفس الإنسان ضعيفة حقاً، وقوية حقاً، لقد أقبلت على نفس سيدى كما أقبلت على غيرى تلتصق عندى الحب ولذاته وآثامه، فلما وجدت منى امتناعاً عليه وصدوداً عنه ونفوراً ملحاً منه، أعرضت عن الحب ولذاته وآثامه، أو أرجأت الحب ولذاته وآثامه وتعلقت بى أنا تريد أن تقهرنى وتغلبنى على أمرى وتتصر على، وتظفر منى بما تريد.

فسيدى لا يطلب عندى الآن حباً ولا لذة ولا إثماً، وإنما يطلب إلى خضوعاً وإذعاناً واستسلاماً. هو يريد أن ينتصر لا أن ينعم، ومن يدري! لعله إنما يؤجل إقصائى عن داره حتى يتم له النصر، ويتحقق له الفوز، فيخرجنى ذليلة صاغرة قد آمنت له وأذعنت لسلطانه! ويكفى أن يخطر لى هذا خاطر وإذا أنا مثله متعلقة بالعناد، ملحة فى الخصام، قد نسيت الانتقام أو كدت أنساه، وأعرضت عن أختى وظلالها الحمراء أو كدت أعرض عنهن، ولم أتمثل إلا عدوا يريد أن يقهرنى، ولا بد من أن أقهره وسيداً يريد أن يبسط سلطانه على ولا بد أن أبسط سلطانى عليه.

وكذلك اتصلت حياتى فى هذه الدار هادئة فى ظاهر الأمر مضطربة أشد الاضطراب وأعظمه نكراً فى حقيقة الأمر، ألقى سيدى باسمه ويلقانى باسمًا، ثم لا يتصل اللقاء بيننا حتى يستحيل الابتسام إلى عبوس والرضا إلى سخط. وإذا هو يدعو فأبى، ويلح فى الدعاء فألح فى الإباء، ويغرى فأرتفع عن الإغراء وينذر فأستخف بالنذير ويستعطف فأقسو على الاستعطاف.

ثم - يا للهول! - ماذا أرى؟ وماذا أسمع؟ وماذا أجد؟ هذا سيدى ماثلاً بين يدى يتلطف وترقق ثم يستعطف ويستجدي، ثم هذا هو جاثياً بين يدى كأنه يتقدم إلى الصلاة، ثم هذا هو باكياً فى صمت، ثم هذا هو مجهشاً بالبكاء، وها أنا ذى أكاد أضعف ويكاد يأخذنى الإشفاق لولا أن أجمع قوتى كلها ونفسى كلها وأدعو إلى أختى وظلالها الحمراء ألتصق منهن العون، وأستمدهن قوة إلى قوة.

وأَمْضَى بعد ذلك فيما كنت فيه من إِبَاء، ثم ينتهي الأمر بيننا إلى شيء يشبه المِوَادِعَة، وإذا أنا قد أخلصت له ولنفسى، وإذا هو قد أخلص لى ولنفسه، وإذا نحن نتحدث فى هدوء وأمن واستقرار فأما هو فقد استيقن اليأس وعجز عن احتمالته، وأما أنا فأهون عليه الأمر مخلصه صادقة وأزين له الانصراف عنى إلى من أحب وما أحب من الخليلات والخدم واللذات وإذا نحن نتفق على أن نفترق، وإذا هو ينصرف عنى على ألا يرانى فى الدار إذا عاد إليها، وأنا أقبل ذلك راضية عنه سعيدة به؛ فقد سئمت هذه الحرب وضعفت عن هذه الخصومة وكرهت هذه الحياة التى تملؤها المطاولة والمحاولة وتثقلها المهاجمة والمقاومة، وقنعت من الغنيمة بالإياب أو بشيء خير من الإياب. فسأخرج من الدار ظافرة بعض الشيء، أليس قد عجز هذا الشاب الجميل الوسيم المترف الغنى القوى أن يبلغ منى ما بلغ من أمثالى؟ أو لست أخرج من هذه الدار وقد جرعت مرارة الهزيمة وعلمته أن من فتيات الريف الساذجات الغافلات من يستطعن الثبات لأمثاله والامتناع على أصحاب الذكاء والجمال والترف والجاه والثراء؟! ولقد انصرف عنى هادئاً وقد أظهر الرضا، وفرغت لأمرى أتهباً للرحيل مزمعة ألا أرى زنوبة ولا ألقاها هذه المرة ولا أقيم فى المدينة ولا أعود إلى أقصى الريف، وإنما آخذ قطاراً من هذه القطارات التى تمضى إلى الشمال نحو القاهرة، أو إلى الجنوب نحو عاصمة الإقليم، فأرض الله واسعة ورزق الله ميسر لمن ابتغاه، وها أنا ذى قد حزمت أمرى وجمعت متاعى الخفيف وصممت أن أخرج، ولكن البستانى موكل بالدار يمنعنى أن أخرج منها ويحول بينى وبين الباب، وينبئنى بأن سيده ألقى إليه أثناء انصرافه أمراً حازماً صارماً أن يحول بينى وبين الطريق، وأن يتكلف ما يستطيع وما لا يستطيع ليمسكنى فى الدار حتى يعود. وإذا فلم يكن جاداً حين اتفق معى على أن نفترق. وإذا فلم يكن هادئاً حين أظهر الهدوء ولا راضياً حين تكلف الرضا، وإنما كان مأكراً مخادعاً. ومن يدرى! لعله كان صادق العزم خالص الرأى، فلما انصرف عنى تمثل الهزيمة وتمثل آثارها وأعقابها فأبت عليه نفسه لأن يرسل هذه الفتاة ولما يخضعها لما أراد.

وقد استيأست أو كدت استيئس من ذلك الخاطر الذى كان يعينى أول الأمر على المقاومة أو يغيرنى بها أو يدفعنى إلى الإغراء والإطماع ثم إلى الإباء والامتناع! فقد كنت أعتقد أن لهذا الشاب فى أرباً، إنه يشتهينى كما اشتهى غيرى من الفتيات، وإن امتناعى عليه قد زاده حرصاً على وتعلقاً بى، ولست أكذب نفسى فكثيراً ما سألتها: أترى شهوته قد استحالت إلى حب؟ أما الآن فأنا مستيقنة أنه لا يحبني، بل لم يحبني قط، وأنه لا يشتهيني، ولعله يزدرنى، وإنما يريد أن يقهر فى عدواً متمرداً وخصماً عنيداً، فلألقين البأس بالبأس، ولألقين العناد بالعناد.

وما كان أيسر الهرب لو أن رغبت فى الهرب أو فكرت فيه، لكنى كنت أريد أن أترك الدار جهرة لا سرّاً وعلى علم منه لا على جهل ومن يدرى! لعلنى لم أكن أحب أن أترك الدار،

وإن كان هذا الخاطر لم يعرض لى ظاهراً جلياً، وهو يعود إلى المساء، وما أكثر ما يعود الآن مع المساء؛ وينفق ليله كله فى الدار لا يسمر ولا يلقى أصحابه، ومن يدرى! بم كان أصحابه يعللون انقطاعه عن السمر وإيثاره للعزلة ولكنه يعود اليوم إلى الدار هادئاً ظاهر الرضا، ويلقانى كما انصرف عنى مبتسماً فى كآبة، وهو يسألنى: أما تزالين هنا وقد فارقتك على ألا ألقاك إذا عدت؟!

- أجل! فارقتنى على ألا تلقانى، ولكنك أمرت خادمك ألا يخلى بينى وبين الطريق.

- ومن زعم لك هذا! لقد كذبتك الخادم، وما أرى إلا أنه حريص على بقائك كاره لفراقك؛ ومن يدرى! لعلك أنت لا تكرهين البقاء معه والاتصال به فهو الذى سماك لى، إنى لإذن لأحمق؛ لقد خدعنى هذا البستانى، ولقد اتخذ دارى مسرحاً للهوه وهواه، فأنت إذن لا تعرضين عنى ولا تمتنعين على إيثاراً للشرف واستبقاء للعفاف، فقد ذهب الشرف منذ زمن بعيد وضاع العفاف منذ أقبلت أو قبل أن تقبلى على هذه الدار وفى سبيل من ذهب الشرف؟ وفى سبيل من ضاع العفاف؟ فى سبيل هذا البستانى الذى تهوينه، وما أشك فى أنه يهواك.

وكان هادئاً مطمئناً حين بدأ هذا الحديث، حتى لم أكن أشك أنه كان عابثاً متكلفاً يلتمس الوسيلة إلى استئناف ما بيننا من الخصام، ولكنه لم يكذب يمضى فى حديثه حتى أخذ هدوؤه يفارقه شيئاً فشيئاً، ولم يكذب ينتهى إلى غايته حتى كان غضباً كله، وشرّاً مستطيراً يتمثل إنساناً يكلم ويتحرك، ذاهباً جائئاً متهيباً للبطش لا يكاد يمتنع عنه إلا فى جهد شديد.

على أنى لقيت عنفه هذا وسخطه كما تعودت أن ألقى كل ما قدم إلى من ألوان العنف واللين، ومن ضرور السخط والرضا ثابتة مطمئنة، وقلت له فى هدوء: لا بأس عليك! خل بينى وبين الطريق، ثم تبين بعد ذلك أتجمعنى بالبستانى جامعة، أو تصلنى به صلة، فلئن خليت بينى وبين الطريق لأخذن أول قطار، ولولا أن أشق على مولاي وأكلفه ما لا يتكلف السادة للخدم لعرضت عليه أن يضعنى فى القطار وأن يرسلنى إلى أى مدينة شاء، فإنى لا أبتغى إلا أن أعيش، فى حيث آمن على شرفى هذا الذى لم يذهب، وعلى عفاى هذا الذى لم يضع وإن ظن سيدى بى الظنون.

قال فى غيظ يشبه الرضا وفى سخرية تشبه الجد: ما تزالين تذكرين السادة والخدم! فقد علمت منذ حين أن ليس بيننا سيادة ولا خدمة، وإنما بيننا ما هو شر من ذلك وأبعد أثرًا.

قلت: وما ذاك؟ قال: هو هذا.. ثم اندفع إلى هاجمًا كأنه الليث يريد أن يزدرد فريسته ازدرادًا، ولكن المرأة لا تغلب إلا إذا أحببت، ولا تقهر إلا إذا أرادت، ولا تدعن إلا إذا رغبت فى الإذعان، ومن أجل ذلك ارتد عنى كما هجم على، واستؤنف الخصام بيننا كما كان من قبل

عنيفًا لينًا، وملنويًا مستقيمًا، وفيه ما فيه من هذه الألوان التي تفسد حياة العاشقين وتزينها في وقت واحد.

وتتصل الحياة على هذا النحو، لا أجد لنفسى منها مخرجًا ولا يجد لنفسه منها مخرجًا، وإنما دفع كل منا إلى صاحبة دفعًا، ورد كل واحد منا عن صاحبه ردًا، لا يستطيع أن يخرجني من داره، ولو قد أراد ذلك لكرهت أن أخرج من هذه الدار، ولا أستطيع أن أفارقه جهرة ولا خفية، ولو قد فعلت لطلبني حيث أكون في الأرض.. فليس عندي شك الآن في أن سيدى لا يشتهينى ولا يبتغى أن يظهر على وينتصر على خصم عنيد، وإنما هو الحب، هو الحب الذى يطمع فى كل شيء ويرضى بأقل شيء، بل يرضى بلا شيء، بل هو سعيد كل السعادة ما وثق بأن بيتًا واحدًا يحويه مع من يحب ويهوى، هو الحب ما فى ذلك شك، ولكن الشك المؤلم المضنى أنما يتصل بهذا القلب الذى يضطرب بين جنى أنا، فما خطبه؟ أمبغض هو كما كان مبغضًا من قبل؟ أراغب هو فى الانتقام كما كان راغبًا من قبل؟ أحافظ هو لعهد هذه الأخت التى صرعت فى ذلك الفضاء العريض، ولعهد الأشباح الحمراء التى تقيم معها على هذا الينبوع الأحمر، والتى قد طال مقامها معها حول هذا الينبوع، وانقطعت زيارتها لهذه الدار فلم تلم بها منذ حين؟

نعم! الشك فى هذا القلب الذى يضطرب بين جنبى بعد أن استيقن أن هذا الشاب يحبنى ولا يستطيع عنى سلوًا، ما خطب هذا القلب؟ أمحب هو أم غير مكترث؟ فإن تكن الأولى فقيم المقاومة، وقيم العذاب، وقيم تعذيب الحبيب؟ وإن تكن الثانية فقيم البقاء فى هذه الدار، وقيم الصبر على هذه الحياة التى لا تطاق؟

كلا! كلا! فكرى يا آمنة، ماذا أقول؟ فكرى يا سعاد.. فقد محى اسم آمنة منذ دخلت هذه

الدار.

فكرى يا سعاد. فقد أن لك أن تفكرى، واعزى أمرى فقد أن لك أن تعزميه، أقيمى كما تقيم العاشقة أو ارتحلى، كما ترتحل القالية، فأما هذه الحياة المعلقة فليس لأحد فيها خير وليس لأحد فيها غناء، ولم يبق لك إلى احتمالها سبيل!

وقد فكرت سعاد، وما كانت فى حاجة إلى التفكير، وقد امتلأ قلبها وعقلها بهذه الحياة التى تحياها امتلاءً، وامتزجا بها امتزجاً، حتى أصبحت جزءاً منها أو أصبحت جزءين منها، وحتى أصبح من أعرس الأشياء وأشققها أن تفكر الفتاة فى هذه الحياة تفكيراً هادئاً مجرداً لا يتأثر بهذه العواطف العنيفة الحادة التى تتصور كأنها النور الذى لا نفور بعده، وتتصور مرة أخرى كأنها الإقبال الذى لا إقبال بعده، وهى فى الحالين شىء واحد تختلف عليه الصور والأشكال دون أن يتغير جوهره الذى هو الحب.

نعم! لقد أصبحت سعاد عاجزة كل العجز عن أن تخلو بنفسها ساعة من نهار أو ساعة من ليل، بل أصبحت عاجزة كل العجز عن أن تخلو إلى نفسها فى يقظة أو نوم، إنما هى مستصحبة هذا الشاب إن حضر، ومستصحبة هذا الشاب إن غاب. لا تهتم بالخلوة إلى ضميرها حتى تجد صورته ماثلة فيه، ولا تمد عينها إلا رأت شخصه، ولا تمد أذنها إلا سمعت صوته، قد أخذ الحياة عليها من جميع أقطارها، وقد زاد عنها كل شىء وكل إنسان، وزاد عنها حتى أختها تلك العزيزة وأشباحتها تلك الحمراء وانتهى الأمر بها كما انتهى الأمر بهذا الشاب نفسه إلى علة تشبه الجنون، ولقد صرفت إليه عن كل شىء وصرفت إليها عن كل شىء.

ولم يبق بين هذين الخصمين العنيدين صراع أو تفكير فى الصراع وإنما هو الإذعان الذى لا ثورة بعده والاستسلام الذى لا رجوع فيه.

ولكن الكبرياء ما زالت مسيطرة على سعاد، تصارع الحب فيها فتصرعه، وتغالب العشق فيها فتغلبه، وما أكثر ما اندفعت الفتاة إلى الاستسلام! حتى إذا كادت تنتهى منه إلى غايته، وحتى إذا بلغت حافة الهوة وكادت تنتردى فيها تمثلت لها الكبرياء قوية عنيفة، ونصبت أمام عينيها مرآة تنظر فيها فترى صورة آمنة الأبية العزيزة، وترى صورة سعاد الضعيفة المتهالكة، فترتد وراءها خطوة أو خطوات، وتؤجل الإذعان والإلقاء باليد إلى أجل يقصر أو يطول!

وقد تغيرت سيرة سيدى أيضاً، فهو محب يلقى من الحب عناء وبلاء، ويجد من آلامه مثل ما أجد. ولكن كبرياءه قد ردت إليه هو أيضاً فأصبح يتمنى فى غير إلحاح، ويأمل فى غير إلحاف، كأنما أحس فى حبه شيئاً من حياة فآثر القصد والاعتدال، وكأنما أحس الإخفاق المتصل فآثر الحرمان فى شىء من العزة على ذلك الإلحاح الذى لم يكن يعقبه إلى هزيمة وخذلان.

ولكنه يقبل على ذات مساء وعلى وجهه ابتسامة فيها شيء من الرضا، وفيها كثير من الحزن، وفيها شك يتردد بين الرضا والحزن، يقبل على ذات مساء لا ثائراً ولا مستسلماً، ويقول لى فى صوت لا حدة فيه: لقد آن لك أن تستريحى، وأن لى أن أستريح! فأنظر إليه نظرة التى لم تفهم عنه والتى تعودت أن تسمع كثيراً فتفهم أو لا تفهم دون أن تحفل بما يستقر فى نفسها أو يعزب عنها مما تسمع، ولكنه يعيد على حديثه فأسأله عما يريد، فيقول: سنفترق لأنى نقلت إلى القاهرة.

وتقع من نفسى هذه الجملة موقع الصاعقة، وإذا أنا ذاهلة لا أجيّب ولا أتكلّف حتى إخفاء الذهول، وإذا أنا أجد شيئاً من الدوار يكاد يبلغ بى الإغماء لولا أن أتمالك، وإذا دموع تتهمر فى صمت متصل، وإذا الفتى يدنو منى فلا أرتد عنه، وإذا هو يضع يديه على كتفى فلا أمتنع عليه، وإنما أنا مغرقة فى الصمت ودموعى ماضية فى الانهماج، والفتى قائم بمكانه قليلاً منى فى هدوء لم أعهده، ينظر إلى صامتاً دهشاً، ثم ينأى عنى قليلاً وهو يقول فى صوت شاحب: ماذا أرى! إنك لتكرهين فراقى حقاً!

ثم يعود إلى صمته، وأمضى أنا فى صمته، وتمضى دموعى فى الانهماج، وما أدرى أطل بيننا هذا الموقف أم قصر، ولكنى أسمعته يدعونى فى صوت قد فارقه شحوبه وعاد ممثلاً مشرقاً كما عرفته، وأرفع رأسى وأحاول النظر إليه من وراء هذه الدموع المنسكبة فأرى وجهاً مشرقاً أشد الإشراف قد استقرت فيه أمارات الحزم والهدوء، وإذا هو يقول لى: أما والأمر بيننا على ما أرى فلن نفترق، ستصحبينى إلى القاهرة، ولن ينالك منى إلا ما تحبين، هلمى فامضى فى شؤونك كما تعودت أن تفعلين، هينئى من أمرى للسفر، فلن نقيم هنا إلا أياماً.

ثم ينصرف عنى كما أقبل على هادئاً رزين الخطأ، وقد أنكرت نفسى كل شيء، وأهم أن ألوم نفسى على هذا الضعف الذى لم أستطع إخفاءه، ولكنى لا أد من نفسى قوة على اللوم، وإذا أنا راضيه عن هذه الحال الجديدة رضاً عميقاً قد مازج نفسى واختلط بدمى، ولكنه فى الوقت نفسه رضاً حزين ليس فيه ابتهاج ظاهر، وإنما هى حياة الخادم التى اطمأنت إلى ما يلزم بها من الأحداث، ومضت فى حياتها لا تتكر شيئاً ولا تعرف شيئاً، وإنما هى مستسلمة تذهب وتجيء وتأتى من الأمر ما تأتى وتدع من الأمر ما تدع؛ لأنها لا تستطيع أن تفعل غير هذا ولا تريد أن تفعل غير هذا، لأنها تجد فى هذا أقصى ما كانت تنتظر من السعادة.

والغريب أنه هو أيضاً قد جعل ينظر إلى منذ ذلك الوقت نظرات برئت من الطمع والأمل، وقنعت منى بما يقنع به السيد النقى من الخادم النقية، فلا إثم بيننا ولا تلميح إلى الإثم ولا خوف من التورط فيه، وإنما هى حياة نقية بريئة قد استؤنفت بيننا كأننا لم نلتق قبل ذلك

الوقت، وكان أحدنا لم يعرف صاحبه قبل تلك الساعة التى أنبأنى فيها أنه قد آن لكلينا أن يستريح لأنه نقل إلى القاهرة.

وانى لأدعو أختى حين أخلو إلى نفسى فى النهار وحين أخلو إلى نفسى فى الليل فلا تستجيب لى صورتها التى كنت أعرفها فى المدينة باسمه مشرقة، ولا تستجيب لى صورتها التى عرفتها فى بيت العمدة واجمة هائمة، ولا تستجيب لى صورتها التى كنت أراها مطرقة إلى ينبوعها الأحمر، تطيف بها ظلالها الحمراء.

لا تستجيب لى صورة من هذه الصور، وإنما هى ذكرى غامضة حزينة تلذع القلب أحياناً فتندفع لها بعض الزفرات وقد تنهمر لها بعض العبرات، ثم لا تلبث أن تتجابه كما ينجاب السحاب الرقيق، وإذا أنا أعود إلى حياتى المضيئة الهادئة، الحزينة فى غير تكلف لحزن أو سرور.

وأنقل مع سيدى إلى القاهرة وأقيم معه فى دار أبويه موكلة بخدمته لا أكلف شيئاً غيرها من أعمال الدار، ولا أجد من أبويه إلا برًا وعطفًا وإلا رفقًا وحنانًا، فأما هو فقد جعل ينظر إلى كلما تقدمت الأيام كما ينظر إلى الصديق لا كما ينظر إلى الخادم قد اصطفانى لنفسه، واختصنى بوده وجعل يشركنى فى كثير من أمره.

يا لله! إنى لأحس شبهًا بين هذه الحياة التى أحيها مع هذا الشاب فى دار أبويه الفخمة بالقاهرة وبين تلك الحياة التى كنت أحيها مع خديجة فى بيت أبويها بمدينة من مدن الأقاليم، لقد عاد الأمر بينى وبين هذا الشاب إلى مثل ما كان بينى وبين خديجة من النقاء والطهر، ألم أخلق إلا لأحيا حياة الأصدقاء!

ولكنها صداقة غريبة هذه التى تقوى وتتمو بين هذا الشاب المترف الغنى، وهذه الخادم البائسة التى طالما طمعت فيها نفسه الطامحة، وأغرته بها عواطفه الجامحة، التى طالما اتخذها غرضًا لأهوائه الآثمة، وابتغى عندها من اللهو والمجون ما يبتغيه أمثاله من الشباب المترفين عند أمثالها من البائسات الغافلات، فلما لم يظفر منها بشيء حاصرهما كما تحاصر القلعة، وحاربها كما يحارب العدو، فلم يستطع أن يقهرها، ولم تستطع أن تقهره، وأقاما معًا فى شيء من المودعة لا يستطيع عنها سلوا ولا تستطيع عنه انصرافًا، ولا يشير إليها من أماله ومطامعه بقليل أو كثير ولا تلقاه هى من مقاومتها وامتاعها بقليل أو كثير لأنها لم تعد فى حاجة إلى المقاومة أو الامتناع.

أأكذب نفسى أم أصدقها؟ أأصارعها بالحق أم أموه عليها الأمر؟ لقد رضيت حياتنا الجديدة واطمأن إليها قلبى كل الاطمئنان، واغتبطت بها نفسى أشد الاغتباط، وارتاح إليها

ضميرى هذا المتعب المعذب الذى كان فى حاجة إلى أن يرتاح، ولكن أظل قلبى مطمئناً ونفسى مغتبطة وضميرى مرتاحاً بعد أن مضت علينا الأسابيع والشهور فى مدينة القاهرة قريبين بعيدين مؤتلفين مختلفين؟ ألم أشعر شعوراً غامضاً بأن هذه الهدنة قد طالوت وبأن هذه المواعدة قد اتصلت أكثر مما كان ينبغى أن تتصل؟ ألم أجد فى أعماق ضميرى شوقاً إلى تلك الحرب وجنوحاً إلى ذلك الخصام؟ ألم أحسن فى دخيلة نفسى أن حياء هذا الشاب قد يكون لونا من الصيد وأن احتشامه قد يكون فنا من الإعراض؟ بلى! وجدت هذا كله وأنكرته من نفسى أشد الإنكار ولمتها فيه أعنف اللوم، وما أشك فى أنه وجد من نفسه مثل ما كنت أجد ولا من نفسه فى مثل ما كنت ألوم نفسى فيه.

وقد زاد هذا الحمل ثقلا على نفسه وعلى نفسى أنه سار منذ انتقل إلى القاهرة سيرته تلك التى ألفها فى الأيام الأخيرة من حياته فى الأقاليم، فكان يغدو إلى عمله مصبجاً ويروح إلى دار أبويه حين يتقدم النهار فلا يكاد يخرج منها إلا إذا كان الغد. ومع ذلك فأمثاله من الشباب لا يلمون بدورهم إلا ليخرجوا منها، إنما دورهم فنادق يطعمون فيها ويأوون إليها آخر الليل. وفى القاهرة مما يفتن الشباب ويغريهم شيء كثير طالما سمعت أحاديثه قبل أن أبلغ القاهرة وبعد أن أقمت فيها. فما بال الشاب لا تبلغه فتنة ولا يناله إغراء؟ لقد رضى أبواه أول الأمر عن هذه الحياة المستقيمة كل الرضا، وابتهجا بمحضر ابنهما كل الابتهاج، ولكنهما وجدا آخر الأمر أن الفتى قد أسرف على نفسه فى لزوم الدار والعكوف على القراءة والانقطاع عن الأندية وما يكون فيها من لقاء الأصدقاء والتعرف إلى الناس، وكثيراً ما رغبته أمه فى الخروج فلم يستجيب لهذا الترغيب وكثيراً ما أغراه أبوه بملاعب التمثيل ومجالس الموسيقى وزيارة هذا البيت أو ذلك من بيوت الأصدقاء فلم يستمع لهذا الإغراء، إنما هو الغدو على العمل والرواح إلى الدار، والأوقات ينفقها مع أبويه، ثم الانحياز إلى غرفته والانقطاع إلى كتبه يعكف عليها حتى يتقدم الليل.

وكان فى أثناء ذلك ربما دعانى إلى غرفته وأخذ يتحدث إلى ويسمع منى، وكانت المدينة وشؤون أهلها موضوع حديثنا فى كثير من الأحيان، كما كانت القاهرة وشؤونها موضوع حديثنا أحياناً أخرى.

كان يتحدث أو يسمع جالساً فى مكتبه، وكنت أتحدث أو أسمع واقفة غير بعيدة من مكتبه. وما أكثر ما دعانى إلى الجلوس وما أشد ما كنت أتمنى الجلوس! ولكنى كنت أعتذر باسمه؛ فما ينبغى لمثلى أن تجلس إلى مثله وإنما حسب مثلى من مثله الوقوف بين يديه والتحدث إليه والاستماع له، وهذا كثير.

ألم تكن غريبة هذه الصداقة بينى وبين هذا الشاب على ما كان بيننا من الائتلاف والاختلاف؟ أكانت صداقة خالصة أم كان وراءها أكثر من الود الذى يكون بين الأصدقاء؟ أما

أنا فقد كنت أجد وراء هذه الصداقة حبًا ثائرًا أكتمه على ما كان يكلفني كتمانها من الجهد ويحملني من المشقة والعناء، وأما هو فقد كتم أمره أسابيع وشهورًا حتى خدعني أو كاد يخدعني عن نفسه، ولكنه ألقى النقاب ذات مساء فغير من أمرنا كل شيء ألقاه في غير جهد وفي غير تكلف، لم يضطرب له صوته، ولم يظهر على وجهه أثر العواطف المضطربة أو القلب الذي تضطرم فيها نار الحب، إنما تحدث إلى في هذا الأمر كما كان يتحدث إلى في أمر المدينة وفي أمر القاهرة بصوت لا ارتفاع فقيه ولا انخفاض ولا اعوجاج فيه ولا التواء!

قال: ألا ترين أن الأمر بيننا قد آن له أن ينتهي إلى غايته ويبلغ مده؟ قلت: وما ذلك؟ قال: هذا الحب الذي اختصنا فيه وقتًا طويلاً وسكتنا عنه وقتًا طويلاً، ولكنه لم يسكت عنا، فما أظنه قد أمهلك يوماً كما أنه لم يمهلني ساعة، أما ينبغي أن تنتهي هذه الحياة الغامضة إلى ما يجب لها من الصراحة والوضوح؟ وقد سمعت منه ولكني لم أرد عليه جواباً.

فلما طال عليه صمتي استأنف حديثه في صوت لا يزال سواء، فقال: إنك تفهمين عني اليوم ما أريد، كما فهمت عني من قبل ما كنت أريد. قلت مبتسمة: بل إنني لم أفهم عنك شيئاً، قال ضاحكاً: بل تفهمين أنني كنت أريدك على الإثم، وإنني الآن إنما أريدك على الزواج.

واحتجت إلى أن أعتمد على كرسى كان منى غير بعيد، فإن فكرة الزواج لم تخطر لي قط، وما كان ينبغي أن تخطر لي، فقد أقدمت على كثير من خطير الأمر وتصورت في نفسي كثيراً من جليل العمل ولكني احتفظت دائماً بعقلي ولم يخرجني الحب كما لم يخرجني البغض، ولم يخرجني الأمل كما لم يخرجني اليأس، عن طورى في لحظة من اللحظات. لذلك أجبته صادقة بأن هذا أمر لا ينبغي العبث فيه.

قالى وهو يضحك: فإنك تظنين أنني أعبث، وتقدرين ما بينك وبينى من الفرق الاجتماعى متى تزوج السيد الغنى المترف من خادمه الشقية الفقيرة البائسة! أليس هذا هو ما تقدرين؟ فأريحي نفسك إذن من كل هذه الخواطر؛ فقد رأيت منذ موقفنا ذاك فى المدينة أنى لست سيدياً كغيرى من السادة، وقد رأيت أنا منذ عرفتك أنك لست خادماً كغيرك من الخدم، لقد دهشت حين رأيتك تنتظريننى إلى آخر الليل على غير ما تعودت من الفتيات اللاتى سبقتك إلى خدمتى، ولكنى لم أكن أقدر أنك ستثيرين فى نفسى ألواناً أخرى من الدهش.

ثم أطرق صامتاً فأطال الإطراق والصمت، ولبثت ماثلة ذاهلة لا أقول شيئاً، وأكاد لا أذى شيئاً، ولكنه رفع رأسه، وقال فى صوت هادئ حزين: أتقبلين؟ قلت فى صوت ليس أقل من صوته هدوءاً ولا حزناً: فإن سيدى يعلم أن ليس إلى هذا من سبيل. قال: تفكرين فى أبوى! فإنى قد فكرت فيهما قبلك وقد حزمت أمرى، وما أشك فى أنهما لن يمتنعا على، ولو قد فعلا لعرفت

كيف أمتنع عليهما، ولكنهما لن يفعلا، فهل تقبلين؟ قلت: ليس إلى ذلك من سبيل. قال: فمن حقى عليك أن أفهم هذا الامتناع، أنك لتعلمين أن فرأقا بيننا مستحيل، إنى لأعلم كما تعلمين أن ليس لقلبينا رضا إلا فى الزواج. قلت: فقد قضى على قلبينا ألا يرضيا. قال: ومن ذا الذى قضى عليها هذا العذاب المتصل؟ وهممت أن أجيب ولكن صوتى يحتبس، ودمعى ينطلق، وإنى لأرانى أهم بالانصراف، وإنى لأراه قد نهض من مجلسه متاثقلا وعسى إلى متباطئا حتى ردى فى هدوء ودعة، ثم عاد إلى مجلسه وقال: أترين إلى كيف أملك نفسى! ألا تفكرين فى تلك الثورة الجامعة التى شقيت بها وقتاً طويلاً.

أنبئنى من ذا الذى قضى علينا هذا العذاب المقيم؟ قلت: أنت الذى قضى علينا هذا العذاب المقيم، وأنا التى قضت علينا هذا العذاب المقيم، كلانا قضى على صاحبه ما نحن فيه من شر وفكر، وكلانا أتاح لصاحبه ما نحن فيه من هذه المودعة الهائلة التى لا ينبغى أن نطمع فى خير منها فليس فى الحياة خير منها بالقياس إليك ولا بالقياس إلى: قال: فإن حديثك لم يزد إلا غموضاً. قلت: فخير لنا أن نقبله على ما فيه من غموض قال، وقد ظهر أنه يبذل جهداً ليحتفظ بهدوءه: فإنى أقسم لك أنى لم أعد أستطيع صبراً على هذه الحياة، قلت: وأنا أيضاً لا أستطيع صبراً على هذه الحياة، ولكن ما الذى نستطيع أن نفعل وقد سبق القضاء بما لم نحب، قال: أى قضاء؟ ألم يأن لك أن تفصحى، ألم يأن لى أن أفهم، ألم يأن لهذه الظلمة أن تتجاب؟ قلت: أحرص أنت على ذلك؟ إنى لأخشى إن انجابت عنا هذه الظلمة وغمرنا الضوء أن يكره كل واحد منا النظر فى وجه صاحبه، قال، وقد غلبه العنف، فارتفع صوته قليلا واضطربت يده اضطراباً خفيفاً: بل أنا أريد أن أفهم مهما تكن العاقبة. قلت: فإن لى إذا بالجلوس، ولم أنتظر إنته، وإنما جلست على هذا الكرسي الذى كنت أعتد عليه، وألقيت عليه قصتى فى صوت هادئ مطرد لا يبله الدمع ولا يظهر فيه الحزن، ولا ينم عن قليل أو كثير من الاضطراب إنما ألقىت عليه قصتى كأنى أتحدث عن شخص غريب إلى شخص غريب.

وما أدرى أطل الوقت الذى ألقىت فيه قصتى أم قصر، ولكنى أعلم أنى سمعتنى أقول: أفهمت الآن؟ أترى إلى هذا الضوء الذى يغمرنا؟ أستطيع أن تنتظر إلى؟! وقد انتظرت جوابه لحظة غير قصيرة، ولكنى سمعته كأنما كان يتحدث إلى من مكان بعيد جداً، سمعت يقول: نعم! أستطيع أن أنظر إليك، ولن أستطيع أن أنظر إلا إليك، وأنت أتطبيقين أن تنتظرى إلى؟ أما زلت تضميرين الانتقام؟ ولم أجب إلا بما تجيب به المرأة المغلوبة التى انكسرت نفسها وذاب قلبها، فهو يسيل من عينا دموعاً، ثم أسمع بعد وقت لا أدرى أكان طويلاً أم قصيراً يقول لى: لقد كان من الممكن أن نفترق قبل أن يغمرنا هذا الضوء؛ فأما الآن فقد أصبح افتراقنا شيئاً لا سبيل إليه، أليس من العجب أن يكون هذا الضوء الذى أخذ يغمرنا شراً من الظلمة التى خرجنا منها؟ إن

أحدنا لن يستطيع أن يهتدى فى هذا الضوء إلا إذا قاده صاحبه، إن العبء لأثقل من أن تحمليه وحدك، وإن العبء لأثقل من أن أحمله وحدى، فلنحتمل شقاءنا معاً حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً.

ثم انقطع الحديث بيننا فلم يقل شيئاً ولم أقل شيئاً، وأطبق على الغرفة صمت هائل رهيب! غرقنا فيه يقظين كما يغرق النائم فى نوم برىء من الأحلام.

ولكن صوتك أيها الطائر العزيز يبلغنى فينتزعنى انتزاعاً من هذا الصمت العميق، فأثب وجلة مذعورة، ويثب هو وجلا مذعوراً، ثم لا نلبث أن يثوب إلينا الأمن ويرد إلينا الهدوء، فأما أنا فنتحدر على خدى دمعتان حارتان، وأما هو فيقول وقد اعتمد بيديه على المائدة، دعاء الكروان! أترينه كان يرجع صوته هذا الرجيع حين سرعت هنادى فى ذلك الفضاء العريض!!

القاهرة، سبتمبر ١٩٣٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

## فہرس

۷	۱
۹	۲
۱۳	۳
۱۶	۴
۲۰	۵
۲۵	۶
۳۲	۷
۳۵	۸
۳۸	۹
۴۱	۱۰
۴۷	۱۱
۵۳	۱۲
۵۷	۱۳
۶۱	۱۴
۶۵	۱۵

၆၉.....	၁၆
၇၄.....	၁၇
၇၇.....	၁၈
၈၂.....	၁၉
၈၀.....	၂၀
၈၉.....	၂၁
၉၃.....	၂၂
၉၀.....	၂၃
၉၇.....	၂၄
၁၀၂.....	၂၀